الفائق في تواضع خير الخلائق

تأليف

أبي مالك عدنان المقطري

المقدمة

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره. ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران:١٠٢].

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء:١].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا . يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾.

[الأحزاب:٧٠-٧١].

أما بعد:

فبين يديك -أخي القارئ الكريم- كتاب **(الفائق في تواضع خير الخلائق ﷺ)** ذكرت فيه خلقًا من أخلاقه الكريمة، وشمائله العظيمة،

ففيه تواضعه ﷺ مع ربه، ونفسه، وأهل بيته، وأصحابه، والأطفال...الخ ما ستراه من خلال تصفحك للكتاب.

وهذا الموضوع ضمن سلسلة من الكتب التي وفقني الله تعالى للكتابة فيها عن سيرته ﷺ وأخلاقه، وحياته والتعريف به ﷺ.

وكانت بداية ذلك كتاب **(أخلاق النبي ﷺ وقبسات من سيرته)**، ثم **(تيسير الوصول إلى ما يحبه الرسول ﷺ)**، **(رفقاء النبي ﷺ في الجنة)**.

وكان للكتابة في هذه المواضيع أسباب عديدة ومنها:

١- التعريف به ﷺ وبسيرته العطرة المباركة لا سيما في هذا الزمن الذي أصبح كثير من المسلمين وللأسف يجهل كثيرًا من سيرة نبيه ﷺ.

في الوقت الذي يعرفون عن لاعبي الكرة والمصارعين والممثلين أدق التفاصيل ـ فإنا لله وإنا إليه راجعون ـ.

٢- إبراز القدوة في حياته ﷺ وتجليتها واضحة بينة، امتثالًا لقوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ [الأحزاب:٢١].ولن يكون ذلك إلا بدراسة سيرته، ومعرفة تفاصيل مسيرته ﷺ.

٣- التأكيد للمسلمين بل للعالم أجمع أنه لا نجاة لهذه الأمة من مصائبها التي أغرقتها، وبلاياها التي أنتنتها إلا بالسير على نهجه والتمسك بسنته ﷺ فهو القائل -عليه الصلاة والسلام-: عن أبي

هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهم ما تمسكتم بهما : كتاب الله وسنتي، ولن يتفرقا حتى يردا على الحوض». أخرجه مالك مرسلًا، والحاكم مسندًا، وصححه.

وعلى كل فالحديث عنه ﷺ مما يتقرب به العبد إلى الله تعالى، فهو خليل رب العالمين، ومصطفاه الأمين، من شرفه على العالمين، واختاره من بين الأنبياء والمرسلين، وأكرمه كرامة تفوق الأولين والأخريين.

وبعد: فلا أطيل عليك أيها القارئ الكريم فإني أعلم أن كل شوق، وتلهف للخوض في صلب الموضوع، والتعرف على تواضعه الرفيع، فها أنا أتركك معه ﷺ لتشبع نهمك، وترد شيئا من شوقك تجاهه ﷺ.

وكتبه

أبومالك عدنان بن عبده بن أحمد بن علي المقطري

اليمن ـ تعز

يوم الأربعاء الثالث عشر من شوال لعام واحد وثلاثين

وأربعمائة وألف من هجرة المصطفى ﷺ.

فضل التواضع
من الكتاب والسنة

تمهيد

تعريف التواضع:

التواضع: الانكسار والتذلل، وضده التكبر والترفع.

وقال الصنعاني: التواضع عدم التكبر[1].

التواضع أمر من الضعة، وهي، الذل، والهوان، والدناة.

قال العزيزي: التواضع الاستسلام للحق وترك الإعراض عن الحكم من الحاكم، وقيل: هو خفض الجناح للخلق، ولين الجانب، وقيل: قبول الحق ممن كان كبيرًا، أو صغيرًا، شريفًا، أو وضيعًا[2].

أقول السلف في التواضع:

سئل الفضيل بن عياض عن التواضع؟، فقال: «يخضع للحق، وينقاد له، ويقبله ممن قاله».

وقيل: «التواضع أن لا ترى لنفسك قيمة، فمن رأى لنفسه قيمة فليس له في التواضع نصيب» وهذا مذهب الفضيل وغيره.

وقال الجنيد بن محمد: «هو خفض الجناح، ولين الجانب».

وقال أبو يزيد البسطامي: «هو أن لا يرى لنفسه مقامًا، ولا حالًا، ولا يرى في الخلق شرًا منه».

---

(١) سبل السلام (٤/ ٥٧٦).

(٢) عون المعبود(١٣/ ١٩٦).

قال ابن عطاء: «هو قبول الحق ممن كان، والعز في التواضع، فمن طلبه في الكبر فهو كمتطلب الماء من النار»(1).

قال العلامة ابن عثيمين -رحمه الله تعالى-: «التواضع: ضد التعالي، وهو ألا يرتفع الإنسان، ولا يترفع على غيره، بعلم، ولا نسبة، ولا مال، ولا إمارة، ولا وزارة ولا غير ذلك» (ا.هـ)(2).

فضل التواضع:

إن التواضع صفة حميدة، وخلة كريمة، تحبب العبد إلى ربه ومولاه، وتجعله محبوبًا بين خلقه وعباده.

والتواضع في العبد دليل على أصالة معدنه، ونقاء قلبه.

تواضع إذا ما نلت في الناس رفعة ❊❊ فإن رفيع القوم من يتواضع

وللتواضع فضائل كثيرة، ومزايا عديدة، في نصوص الكتاب الكريم ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت:42].

وفي سنة خير خلق الله أجمعين، وصفوته من الأنبياء والمرسلين، الذي لا ينطق عن الهوى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم:4].

---

(1) مدارج السالكين:(2/ 72)

(2) شرح رياض الصالحين: (1/ 883)

١- التواضع من صفات عباد الرحمن، الحائزين الغرف في الجنان:

امتدح الله -عز وجل- في كتابه الكريم، عباده المؤمنين، بصفات عدة، وجعل أول صفاتهم التواضع.

فقال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾[الفرقان:٦٣].

قال الإمام القرطبي: «لما ذكر جهالات المشركين، وطعنهم في القرآن والنبوة، ذكر عباده المؤمنين أيضًا، وذكر صفاتهم، وأضافهم إلى عبوديته تشريفًا لهم» (ا.هـ)[١].

وقال العلامة ابن كثير -رحمه الله-: «هذه صفات عباد الله المؤمنين الذين يمشون على الأرض هونًا أي: بسكينة ووقار من غير جبرية، ولا استكبار، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًا﴾ الآية [الإسراء:٣٧]، فأما هؤلاء فإنهم يمشون من غير استكبار ولا مرح، ولا أشر ولا بطر، وليس المراد أنهم يمشون كالمرض تصنعًا ورياءً، فقد كان سيد ولد آدم ﷺ إذا مشى كأنما ينحط من صبب[٢]، وكأنما الأرض تطوى له،

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: (٧/ ٣٦٥).

(٢) قال في عون المعبود (١/ ١٩٠):(كأنما ينحط من صبب أي: يرفع رجله عن قوة وجلادة، والأشبه أن تكفأ بمعنى صب الشيء دفعه).

وقد كره بعض السلف المشي بتضعب وتصنع وحتى روي عن عمر أنه رأى شابًا يمشي رويدًا، فقال: ما بالك أأنت مريض؟ قال: لا يا أمير المؤمنين، فعلاه بالدرة، وأمره أن يمشي بقوة» (ا.هـ)[1].

قال ابن القيم -رحمه الله-: «أي سكينة ووقارًا متواضعين غير أشرين، ولا مرحين، ولا متكبرين، قال الحسن: علماء حلماء، وقال محمد بن الحنفية: أصحاب وقار، وعفة لا يسفهون، وإن سُفه عليهم حلموا.

والهون بالفتح في اللغة: الرفق واللين، والهون بالضم الهوان، فالمفتوح منه: صفة أهل الإيمان، والمضموم صفة أهل الكفران، وجزاؤهم من الله النيران» (ا.هـ)[2].

وقال العلامة السعدي -رحمه الله-: «فذكر أن صفاتهم أكمل الصفات، ونعوتهم أفضل النعوت، فوصفهم بأنهم: يمشون على الأرض هونًا أي ساكنين متواضعين لله وللخلق، فهذا وصف لهم بالوقار، والسكينة، والتواضع لله ولعباده» (ا.هـ)[3].

فالتواضع من أعظم صفات عباد الرحمن، والتي يصلون بها إلى أعلى الغرف في الجنان.

---

(١) تفسير القرآن العظيم: (٣/ ٣٣٦-٣٣٧).
(٢) مدارج السالكين (٢/ ٣٢٧).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (ص:٥٨٦).

ولذلك قال تعالى في آخر الآيات، بعد ذكر أوصافهم الكريمات، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا. خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ﴾[الفرقان٧٥-٧٦].

والمقصود من الآية أن المراد بالمشي: بسكينة ووقار وتواضع، قال الشاعر:

ولا تمش فوق الأرض إلا تواضعًا ** فكم تحتها قوم همو منك أرفع

وإن كنت في عز وحرز ومنعــــة ** فكم مات من قوم همو منك أمنع

٢- التواضع من علامات حب الله للعبد:

إن نيـل محبـة الله -عـز وجـل- مـن أعظـم الأمنيـات، وأجـل المحبوبات، لعباد الله الصالحين، ولهذه المحبة أسباب وطرق توصل إليه، وتدل عليه، ومن هذه الأسباب.

التحلي بالتواضع. ففي كتاب الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ المائدة:٥٤.

يخـبر الله -عـز وجـل- عـن صـفات قـوم ينصـر بهـم هـذا الـدين، ويقومون بشريعته وملته، وهم خير بديل لمن يرتد عن هذا الصراط.

ومن صفاتهم ا لبارزة، وسماتهم الواضحة، أنهم أذلة على إخوانهم المؤمنين، قال العلامة ابن كثير -رحمه الله-: «هذه صفات المؤمنين الكمل أن يكون أحدهم متواضعًا لأخيه، ووليه، متعززًا على خصمه وعدوه، كما قال تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ ﴾ [الفتح:٢٩]» (ا.هـ)[١].

وقال الإمام القرطبي: «أذلة: نعت لقوم، وكذلك أعزة أي: يرأفون بالمؤمنين، ويرحمونهم، ويلينون لهم، من قولهم: دابة ذلول أي: تنقاد سهلة، وليس من الذل في شيء، ويغلظون على الكافرين ويعادونهم، قال ابن عباس: هم للمؤمنين كالوالد للولد، والسيد للعبد، وهم في الغلظة على الكفار كالسبع على فريسته»[٢].

وقال العلامة الشنقيطي -رحمه الله-: «أخبر تعالى المؤمنين في هذه الآية الكريمة أنهم إن ارتد بعضهم، فإن الله يأتي عوضًا عن ذلك المرتد بقوم من صفاتهم الذل للمؤمنين والتواضع لهم، ولين الجانب، والشدة والقسوة على الكافرين، وهذا من كمال صفات المؤمنين» (ا.هـ)[٣].

وقال العلامة محمد أبو السعود -رحمه الله-: «(أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ)

---

(١) تفسير القرآن العظيم: (٢/ ٧٣).

(٢) الجامع لأحكام القرآن: (٤/ ١٤٣).

(٣) أضواء البيان (١/ ٤١٥).

جمع ذليل لا ذلول، فإن جمعه ذلل أي: أرقاء رحماء متذللين، ومتواضعين لهم، واستعماله لعلى إما لتضمين معنى العطف والحنو، أو للتنبيه على أنهم مع علو طبقتهم[1] وفضلهم على المؤمنين خافضون لهم أجنحتهم...» (ا.هـ).

فما أعظم أن يسهل للعبد أسباب الوصول إلى محبة المولى -عز وجل-، فإن محبة الله للعبد أعظم نعمة، وأجل منة يعطاها الإنسان.

قال العلامة السعدي -رحمه الله-: «فإن محبة الله للعبد هي أجل نعمة أنعم بها عليه، وأفضل فضيلة، تفضل بها الله عليه، وإذا أحب الله عبدًا يسر له الأسباب، وهون عليه كل عسير، ووفقه لفعل الخيرات، وترك المنكرات، وأقبل بقلوب عباده إليه بالمحبة والوداد» (ا.هـ)[2].

٣- التواضع طريق للعلو في الدارين.

إن الدنيا والآخرة بيد الله -عز وجل- يعطيها من يشاء يرفع فيهما من يشاء، ويضع من يشاء، ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾[آل عمران:٢٦].

وكم في الخلق من إنسان أراد الرفعة، وبحث عن العلو، ولكنه أتى

---

(١) تفسير أبي السعود ( ).

(٢) تيسير الكريم الرحمن:(٢٣٥).

البيوت من غير أبوابها، فعامله الله بنقيض قصده كإبليس الرجيم أراد الرفعة فتكبر عن أمر الله تعالى فجعله المولى -عز وجل- من الصاغرين الُمحتقرين إلى قيام الساعة.

ومن أبواب الرفعة، وعلو الشأن، في الآخرة التواضع. ففي محكم التنزيل، وآيات العزيز الحكيم: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[القصص: ٨٣].

ففي هذه الآية بشارة عظيمة للمتواضعين المتقين، بجنة النعيم، دار الخلد.

قال العلامة ابن كثير -رحمه الله-: «يخبر تعالى أن الدار الآخرة، ونعيمها المقيم الذي لا يحول ولا يزول جعلها لعباده المؤمنين المتواضعين الذين (لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ) أي: ترفعًا على خلق الله، وتعاظمًا عليهم، وتجبرًا بهم، ولا فسادًا فيهم» (ا.هـ)[١].

وقال الإمام القرطبي -رحمه الله-: «قوله تعالى: (تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ) يعني الجنة. وقال ذلك على جهة التعظيم لها، والتفخيم لشأنها يعني تلك التي سمعت بذكرها، وبلغك وصفها» (ا.هـ)[٢].

وقال العلامة السعدي -رحمه الله-: «لما ذكر الله تعالى قارون وما

---

(١) تفسير القرآن العظيم: (٣/ ٤١٢).

(٢) الجامع لأحكام القرآن: (٧/ ٥٥٣).

أوتيه من الدنيا، وما صارت إليه عاقبة أمره، وأن أهل العلم قالوا: ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحًا. رغب تعالى في الدار الآخرة وأخبر بالسبب الموصل إليها فقال: (تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ) التي أخبر الله بها في كتبه، وأخبرت بها رسله، التي قد جمعت كل نعيم، واندفع عنها كل مكدر ومنغص، (نَجْعَلُهَا) دارًا وقرارًا (لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) وهذا شامل لجميع المعاصي، فإذا كانوا لا إرادة لهم في العلو في الأرض والإفساد، لزم من ذلك أن تكون إرادتهم مصروفة إلى الله، وقصدهم الدار الآخرة، وحالهم التواضع لعباد الله، والانقياد للحق، والعمل الصالح، وهؤلاء هم المتقون الذين لهم العاقبة» (ا.هـ)[1].

وفي سنة النبي ﷺ ما يبين ذلك، ويشهد له، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «ما تواضع أحد لله إلا رفعه الله» [رواه مسلم][2].

قال الإمام النووي -رحمه الله-: «فيه وجهان: أحدهما: يرفعه الله في الدنيا، ويثبت له بتواضعه في القلوب منزلة، ويرفعه الله عند الناس، ويجل مكانه.

والثاني: أن المراد ثوابه في الآخرة، ورفعه فيها بتواضعه في الدنيا...

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص:٦٢٤-٦٢٥).

(٢) أخرجه مسلم:(٢٥٨٨).

وقد يكون المراد الوجهين معًا في جميعهما»[1].

وقال الصنعاني في شرحه: «دليل على أن التواضع سبب للرفعة في الدارين لإطلاقه في الدنيا والآخرة والله أعلم» (ا.هـ)[2].

فعلم من هذا كله أن التواضع يرفع المرء في الدنيا، وفي الآخرة، وهو الهدف الأسمى والغاية العظمى، لعباد الله المتقين.

تواضع إذا ما كنت تبغي العلا ** وكن راسيًا عند صفو الغضب
فخفض الفتى نفسه رفعـــةً ** لـه واعتبر برسوب الذهب

قال ابن الحاج -رحمه الله-: «من أراد الرفعة فليتواضع لله تعالى، فإن العزة لا تقع إلا بقدر النزول، ألا ترى أن الماء لما نزل إلى أصل الشجرة، صعد إلى أعلاها، فكأن سائلًا سأله: ما صعد بك هنا أعني في رأس الشجرة وأنت تحت أصلها؟! فكأن لسان حاله يقول: من تواضع لله رفعه»[3].

٤- التواضع وقاية من الوقوع في الظلم، وحماية من التعالي والتفاخر على الآخرين.

الظلم من أعظم الذنوب وهو جناية في حق الآخرين، وانتهاك لسيادتهم،

(١) شرح مسلم: (١٦/ ١٣٤).
(٢) سبل السلام (٤/ ٥٧٩).
(٣) المدخل: (٢/ ١٢٢).

وحقوقهم، وتعدٍ على أعراضهم، وأموالهم، وقد أرشدنا النبي ﷺ إلى علاج نافع، ودواء ناجع، تتعالج به المجتمعات، والأمم، والأفراد من هذا الداء القتال، والسم العضال.

والعلاج هو (التواضع) و(خفض الجناح للآخرين).

فعند مسلم عن عياش بن حمار رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله أوحى إلي أن تواضعوا. حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد»[1].

قال ابن الأمير الصنعاني: -رحمه الله-: «وعدم التواضع يؤدي إلى البغي، لأنه يرى لنفسه مزية على الغير، فيبغي عليه بقول أو فعل، ويفخر عليه ويزدريه، والبغي والفخر مذمومان.

ووردت أحاديث في سرعة عقوبة البغي...» (ا.هـ)[2].

٥- نصوص في التواضع:

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من آدمي إلا في رأسه حكمة[3] بيد ملك، فإذا تواضع قيل للملك: ارفع حكمته.

---

(١) أخرجه مسلم: (٢٨٦٥).

(٢) سبل السلام: (٤/ ٥٧٦).

(٣) قال الفيومي في المصباح المنير (ص:٩٠): «(«الحَكَمَةُ) وزان قصبة للدابة سميت بذلك؛ لأنها تذللها لراكبها حتى تمنعها الجماح ونحوه ومنه اشتقاق (الحِكْمَةِ) لأنها تمنع صاحبها من أخلاق الأرذال».

وإذا تكبر قيل للملك: دع حكمته»[1].

قال المنادي: «(قيل للملك) من قبل الله: (ارفع حكمته) أي: قدره ومنزلته، (وإذا تكبر قيل للملك: ضع حكمته) كناية عن إذلاله، فإن من صفة الذليل تنكيس رأسه، فثمرة النكير في الدنيا الذلة بين الخلق، وفي الآخرة النار» (ا.هـ)[2].

وقال ابن الحاج المالكي -رحمه الله-: «إذا ثبت التواضع في القلب ثبت فيه جميع الخير من الرأفة، والرقة، والرحمة، والاستكانة، والقنوع، والرضى، والتوكل، وحسن الظن، وشدة الحياء، وحسن الخلق، ونفس الطمع، وجهاد النفس، وبذل المعروف، وسلامة الصدر، والتشاغل عن النفس، والمبادرة في العمل بالخير، والبطاء عن الشر كل امرئٍ على قدر ما فيه من البر يكون فعله على قدر ذلك ويكون حذره على قدر ذلك» (ا.هـ)[3].

---

(١) رواه الطبراني في الكبير: (١٢٧٦٥).

(٢) التيسير بشرح الجامع الصغير: (٢/ ٦٩٠).

(٣) المدخل لابن الحاج: (٣/ ٧٢).

تواضعه ﷺ لربه

لقد كان للنبي ﷺ مع ربه أحوال عجاب، وأمور يذهل منها أولو الألباب، لما يرونه من الأخلاق العالية، والمواقف الغالية من خير البرية، ورسول الإنسانية مع ربه العظيم، خالقه الكريم.

ومن ذلك تواضعه ﷺ مع ربه العلي الكبير، و خضوعه للعزيز القدير.

فقد خُيّر ﷺ بين أن يكون عبدًا رسولًا، أو نبيًا ملكًا فاختار مقام العبودية والرسالة على مقام النبوة والملك.

١- فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «جلس جبريل إلى النبي ﷺ فنظر إلى السماء، فإذا ملك ينزل، فقال جبريل: إن هذا الملك ما نزل منذ يوم خُلق قبل الساعة، فلما نزل قال: يا محمد أرسلني إليك ربك، قال: أفملكًا نبيًا يجعلك، أو عبدًا رسولًا. قال جبريل: تواضع لربك يا محمد. قال: بل عبدًا رسولًا»(١).

فهذا المشهد المبارك، والحوار الرائع من أعظم ما يشهد للنبي ﷺ في تواضعه لربه، وهو يوضع ﷺ بين خيارين اثنين، فاختار ما فيه تواضعه لربه ومولاه، وأنسه بالذي لا إله غيره، ولا رب سواه، وترك الخيار الآخر الذي فيه ملك الدنيا، والتنعم بمتاعها الفانية الزائل .

٢- وفي حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: «يا عائشة،

---

(١) أخرجه أحمد(٧١٦٠)، وقال شعيب الأرناؤوط في تعليقه: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

لو شئتُ لسارت معي جبال الذهب، جاءني ملك إن حجزته لتساوي الكعبة، فقال: إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول: إن شئت نبيًا عبدًا، وإن شئتَ نبيًا ملكًا، فنظرت إلى جبريل عليه السلام، فأشار إلي أن ضع نفسك قال: فقلت: نبيًا عبدًا. قالت: وكان رسول الله ﷺ بعد ذلك لا يأكل متكئًا، يقول: آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد»[1].

ورغم ما حباه الله -عز وجل- به -عليه الصلاة والسلام- من الفضائل والمزايا، إلا أنه لا يزيده ذلك إلا تواضعًا، وإخباتًا.

وها هو -عليه الصلاة والسلام- في موضع النصرة، والفتح المبين يدخل مكة في غاية التواضع، ومطلق الذل لله تعالى،

وعن أنس رضي الله عنه قال: دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح، وذقنه على راحلته متخشعًا[2].

قال ابن كثير -رحمه الله تعالى-: «وهذا التواضع في هذا الموطن عند دخوله ﷺ مكة في مثل هذا الجيش العرمرم بخلاف ما اعتمده سفهاء بني إسرائيل حين أمروا أن يدخلوا باب بيت المقدس، وهم

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات: (١/ ٢٨١)، وأبو يعلى: (٤٩٢٠). وقال العلامة الألباني (السلسلة الضعيفة ٥/ ٦٥): (والحديث صحيح دون جملة الحجزة وبلفظ بل عبدا رسولا). (انظر الصحيحة ١٠٠٢).

(٢) البيهقي في الدلائل: (١٨٠٣)، وذكره العلامة عبد المحسن العباد -حفظه الله تعالى- في (من أخلاق الرسول الكريم) ضمن كتبه ورسائله: (٦/ ٤٠).

سجود أي: ركع يقولون: حطة، فدخلوا يزحفون على أستاهم وهم يقولون: حطــة في شعرة».

ومن تواضعه ﷺ لربه ما كان في خروجه لصلاة الاستسقاء من تواضع وتضرع لله الذي لا إله غيره.

قال ابن عباس: «خرج رسول الله ﷺ متخشعًا، متضرعًا، متواضعًا، مبتذلًا، مترسلًا، فصلى بالناس ركعتين كما يصلي في العيد لم يخطب كخطبتكم هذه»[1] والمراد بالصلاة هنا صلاة الاستسقاء.

ومن تواضعه ﷺ لربه -عز وجل- أنه كان ينهى الصحابة الكرام، وهو نهي لجميع الأمة عن إطرائه، والمبالغة في مدحه، وبإضفاء الصفات عليه بوجه لا يليق إلا بالله سبحانه وتعالى.

فعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول قال رسول الله ﷺ: «لا تُطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبد: فقولوا: عبد الله ورسوله»[2]، والإطراء: هو المدح بالباطل[3].

وإطراء النصارى لابن مريم عليه السلام هو ادعاؤهم فيه الإلوهية، وأنه ابن الله، وثالث ثلاثة وغير ذلك.

---

(١) أخرجه أحمد: (٢٠٣٩)، والنسائي: (١٥٢١)، وابن ماجه: (١٢٦٦). وصححه الألباني في الصحيحة: (١٠٥٨).

(٢) أخرجه البخاري: (٣٤٤٥).

(٣) فتح الباري: (٦/ ٤٩٠).

والمؤمن قد نُهي عن سلوك سبيل النصارى، وسلوك طريقهم، وفي أشرف المقامات، وأجل الطاعات يقف المؤمن سائلًا ربه السلامة من فعـل اليهـود والنصـارى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾[الفاتحة:٦-٧].

ولذلك نهى الله أهل الكتاب في كتابه الكريم عن الغلو في المسيح -عليه الصلاة والسلام-، وخاطبهم فقال: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴾[النساء:١٧١].

وقد نهى الله -عزوجل-، ونهى رسوله ﷺ عن الغلو، والإطراء الذي كانت عليه النصارى في عيسى -عليه الصلاة والسلام- ، ويرشد النبي ﷺ في الحديث على إنزاله المنزلة التي أنزله الله إياها، واختار لنفسه وصفًا يحبه -عليه الصلاة والسلام- فقال: إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله.

فهو عبدٌ لا يُعبَد، ورسول لا يُكذب، ولهذا نقول في صلاتنا في

التشهد: (وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله)، فهذان الوصفان أصدق وصفًا، وأشرف في الرسول ﷺ[1].

وهناك من الناس من لم يرض لرسول الله ما رضيه الله له، ورضيه هو لنفسه ﷺ وأصر هؤلاء إلا أن يشابهوا النصارى فيما نهى عنه ﷺ فغلوا في وصفه، وتجاوزوا الحد في حبه، فمنهم من يدعوه، ويستغيث به من دون الله تعالى، ومنهم من يقول: يا رسول الله المدد، المدد، يا رسول الله أغثنا من القحط والجدب...الخ.

بل منهم من تجاوز الحد، فأعطاه حق الربوبية، وأسبغ عليه صفات الخالق -تبارك وتعالى- حتى قال قائلهم[2].

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به ** سواكَ عند حلول الحادث الهمم
إن لم تكن في معادي آخذًا بيدي ** فضلًا وإلا فقل يا زلة القدم
فإن من جودك الدنيا وضرتها ** ومن علومك علم اللوح والقلم

قال بعض العلماء: لم يترك لله شيئًا ما دامت الدنيا والآخرة من جود الرسول ﷺ. نعوذ بالله من أن نشرك به، وأن نرد على أعقابنا.

فهذا القول مما يتنافى مع الشهادة بعبوديته ﷺ لربه سبحانه وتعالى[3].

---

(١) انظر القول المفيد شرح كتاب التوحيد لابن عثيمين: (١/ ٣٧٠ - ٣٧١).

(٢) وهو البوصيري في بردته المشهورة.

(٣) أصل صفة صلاة النبي ﷺ للألباني: (٣/ ٨٨٢).

وعن أنس بن مالك ﷺ أن ناسًا قالوا: «يا رسول الله يا خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا، فقال: يا أيها الناس قولوا بقولكم، ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد بن عبد الله، عبد الله ورسوله، والله ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله -عز وجل-»[1].

قال العلامة ابن عثيمين -رحمه الله- : «قوله ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي أي: إني أكره أن ترفعوني فوق منزلتي، وهي العبودية والرسالة، ففيها تواضعه ﷺ» (ا.هـ)[2].

تنبيـــه:

نهى النبي ﷺ في هذا الحديث عن قولهم له: «سيدنا»، وفي غيره يقول ﷺ: «أنا سيد ولد آدم»[3]

قال المناوي -رحمه الله-: «ولا يناقضه وأنا سيد ولد آدم» لأنه إخبار عما أعطي من الشرف على النوع الإنساني، واستعمال سيد في غير الله شائع في الكتاب والسنة.

قال النووي: «والمنهي عنه استعماله على جهة التعاظم، لا التعريف» (ا.هـ)[4].

---

(١) أخرجه أحمد: (١٢٣٠٢)، وصححه الألباني في الصحيحة: (١٠٩٧).

(٢) القول المفيد: (٢/ ٥٢٢).

(٣) أخرجه البخاري: (٣٣٤٠) ومسلم: (٢٢٧٩).

(٤) فيض القدير: (٤/ ١٥٢).

وقال العلامة ابن عثيمين -رحمه الله-: «والذي يظهر لي أن لا تعارض أصلًا، لأن النبي ﷺ أذن لهم أن يقولوا بقولهم، لكن نهاهم أن يستجريهم الشيطان بالغلو مثل (السيد)، لأن السيد المطلق هو الله تعالى، وعلى هذا فيجوز أن يقال سيدنا، وسيد بني فلان ونحوه، ولكن بشرط أن يكون فاسقًا أو زنديقًا، فلا يقال له ذلك حتى، ولو فرض أنه أعلى منه مرتبة، أو جاهًا، وقد جاء في الحديث: (ولا تقولوا للمنافق سيد، فإنكم إذا قلتم ذلك أغضبتم الله)، فإذا كان أهلًا لذلك، وليس هناك محذور، فلا بأس به، وأما إن خشي المحذور، أو كان غير أهل، فلا يجوز والمحذور: هو الخشية من الغلو فيه» (ا.هـ)[1].

ومن ذلك أيضًا ما جاء في البخاري عن الربيع بنت معوذ رضي الله عنها قالت: جاء النبي ﷺ يدخل حين بنى علي، فجلس على فراشي مجلسك مني -الخطاب للراوي عنها-، فجعلت جويريات لنا يضربن بالدف، ويندبن من قتل من آبائي يوم بدر، إذ قالت إحداهن: وفينا نبي يعلم ما في غد، فقال ﷺ: «دعي هذه وقولي بالذي كنت تقولين»[2].

قال الحافظ ابن حجر -رحمه الله-: «وإنما أنكر عليها ما ذكر من الإطراء حيث أطلق علم الغيب له، وهو صفة تختص بالله تعالى، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل:٦٥]،

---

(١) القول المفيد: (٢/ ٥١٨).

(٢) أخرجه البخاري: (٤٠٠١).

وقولـه لنبيـه: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾ [الأعراف:١٨٨].

وسائر ما كان النبي ﷺ يخبر به من الغيوب بإعلام الله تعالى إياه لا أنه يستقل بعلم ذلك كما قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾ [الجن: ٢٦ -٢٧]» (ا.هـ)[١].

فهذه هي أخلاقه ﷺ مع ربه -تبارك وتعالى- وتواضعه له، فهو لا يرضى بالإطراء، والمبالغة في المدح الباطل، كما يفعله بعض من بلي بصفة الكبر، والتغطرس ممن إذا مدح ولو بما ليس فيه، رفع رأسه مشمرًا للمزيد منه، وأمثلة هذا في التاريخ كثيرة.

ومن ذلك:

- ما وقع من المديح الزائف، والثناء الكاذب، بل والكفر الصارخ من الشاعر أبي هانئ في غلوه في مولاه المعز الفاطمي:

ولك الجوارِ المنشآت مواخر ** تجري بأمرك والرياح رخاء

فعنت لك الأبصار وانقادت لك الأ ** قدار واستحيت لك الأنواء

لا تسألن عن الزمان فإنه ** في راحتيك يدور حيث تشاء

ولم يفترُ ابن هانئ عن مواصلة كفره مع المعز، ولكنه أغرق في ذلك فقال:

(١) فتح الباري: (٩/ ٢٠٣).

ما شئتَ لا ما شاءتِ الأقدار ** فاحكم فأنت الواحد القهار
وكأنما أنت النبي محمد ** وكأنما أنصارك الأنصار
هذا الذي تجدي شفاعته غدًا ** حقًا وتخمد أن تراه النار

فتأمل إلى كلمات الكفر، والسجع الآثم الفاجر يقال في ذلك الأمير، ويصدح بها أمامه، غير مبالٍ بضلال ذلك الشاعر، بل وإنه من المؤيدين.

فأين هؤلاء من أخلاقه ﷺ ودينه، وأين صدق ما يدعون من فاطمية مكذوبة، ونسبة مغرورة، فالحمد لله الذي هدانا، وجعلنا مسلمين.

ومن تواضعه لربه ﷺ إخباره برعي الغنم قبل البعثة.

فعند البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بعث الله نبيًا إلا رعى الغنم»، فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: «نعم كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة»[1].

قال الحافظ ابن حجر -رحمه الله- (الفتح) (٤/ ٥١٦): «وفي ذكر النبي ﷺ لذلك بعد أن أُعلم أنه أكرم الخلق على الله، ما كان عليه من عظيم التواضع لربه، والتصريح بمنته عليه، وعلى إخوانه من الأنبياء صلوات الله عليه وعلى سائر الأنبياء. (ا.هـ).

---

(١) أخرجه البخاري:(٢٢٦٢).

تواضعه ﷺ مع أهله وفي بيته

إن من أحق الناس بالخلق الحسن هم أهل الإنسان، والذين هم أقرب الناس إليه، فعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي»(١).

ولقد كان صلى الله عليه وسلم نعم الرجل لأهله، وأحسن الناس تعاملًا معهم، وهو مضرب المثل في ذلك، وصاحب القدح المعلى.

فعن الأسود بن يزيد قال: «سئلت عائشة رضي الله عنها ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يصنع في بيته؟ قالت: كان يكون في مهنة أهله، فإذا حضرت الصلاة، قام إلى الصلاة»(٢).

وعند أحمد: «كان يخيط ثوبه، ويخصف(٣) نعله، ويعمل ما يعمل الرجال في بيوتهم»(٤).

وعنها كذلك أنها سئلت ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يعمل في بيته؟ قالت: «كان بشرًا من البشر، يفلي ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه»(٥).

قال السندي -رحمه الله- في حاشيته على البخاري: «ففيه أن خدمة الدار وأهلها سنة عباد الله الصالحين»(٦).

---

(١) أخرجه ابن ماجة: (١٩٧٧)، وصححه الألباني في الصحيحة: (٢٨٥).
(٢) أخرجه البخاري: (٦٧٦).
(٣) أي: يجمعه ويضمه ويخيطه.
(٤) أخرجه أحمد: (٢٦٢٨٢).
(٥) أخرجه أحمد: (٢٦٢٣٧)، وانظر صحيح الأدب المفرد للألباني: (٤١٩-٤٢٠).
(٦) (٣/ ٥١٥).

وقال الحافظ ابن حجر -رحمه الله-: «قال ابن بطال: من أخلاق الأنبياء التواضع، والبعد عن التنعم، وامتهان النفس، ليستن بهم، و لئلا يخلدوا إلى الرفاهية المذمومة، وقد أشير إلى ذمها، بقوله تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ [المزمل: ١١]»[١].

فقد كان ﷺ في غاية التواضع مع أهل بيته، يعينهم في أمورهم، ويقوم بأعمال يستكبر عنها كثير من رجال هذا الزمان.

فإصلاح النعل، وخياطة الثوب، وحلب الشاة، أعمال من المستحيل أن يقوم بها بعض الرجال في خدمة أهلهم، فهو يعتقد برأيه الفاسد، وفهمه الكاسد، أن المرأة ما وجدت عنده إلا لتكون عبدة وظيفتها أن تسمع، وتطيع كل ما يأمر به، وأن تخدمه في كل شيء دون مراعاة لظروف مرضها، وأحوال نفسيتها عند ما يأتيها ما جبلت عليه النساء من حمل، أو حيض. بل ويرى بعضهم أنه من العيب، والعار أن يخيط الثوب، أو يحلب الشاة، أو يعين زوجته في أمور البيت.

والكبر هو السبب الأكبر في هذه المفاهيم السقيمة، والأفكار الغير مستقيمة.

---

(١) فتح الباري: (١٠/ ٤٦١).

ولخدمة الرجل أهل بيته، ومعاونتهم فوائد، ومقاصد عظيمةمنها:

١ - **أن ذلك من المعاشرة بالمعروف التي حث الله عليها في كتابه الكريم**، فقال -عزوجل-: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ [النساء: ١٩].

قال العلامة ابن كثير -رحمه الله-: «أي طيبوا أقوالكم لهن، وحسنوا أفعالكم، وهيئاتكم بحسب قدرتكم كما تحب ذلك منها، فافعل أنت بها مثله كما قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِي عَلَيۡهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨]. وقال ﷺ: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي» (ا.هـ)[١].

وقال العلامة السعدي -رحمه الله-: «وهذا يشمل المعاشرة القولية والفعلية، فعلى الزوج أن يعاشر زوجته بالمعروف من الصحبة الجميلة، وكف الأذى، وبذل الإحسان، وحسن المعاملة، ويدخل في ذلك النفقة، والكسوة ونحوهما، فيجب على الزوج» (ا.هـ)[٢].

وقال الإمام القرطبي -رحمه الله-: «استدل علماؤنا بقوله تعالى: (وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ) على أن المرأة إذا كانت لا يكفيها خادم واحد أن عليه أن يخدمها قدر كفايتها» (ا.هـ)[٣].

---

(١) تفسير ابن كثير: (١/ ٤٧٧).

(٢) تيسير الكريم الرحمن: (ص:١٧٢).

(٣) الجامع لأحكام القرآن: (٣/ ٢٦٧).

قلت: ومن لم يكن لها خادم لفقر زوجها أو غيره، ويعسر عليها القيام بأعمال البيت إن كانت كثيرة، وفوق طاقتها، فكذلك على زوجها خدمتها وإعانتها في ذلك، وهذا من المعاشرة بالمعروف، والصحبة الجميلة.

وقال العلامة الألباني -رحمه الله- بعد تقريره لوجوب خدمة المرأة لزوجها. قال: (هذا وليس فيما سبق من وجوب خدمة المرأة لزوجها ما ينافي استحباب مشاركة الرجل لها في ذلك، إذا وجد الفراغ والوقت، بل هذا من حسن المعاشرة بين الزوجين، ثم ذكر حديث عائشة المتقدم.[1]

٢- زيادة المحبة والتآلف بين الزوجين:

وكم يُدخل التعاون بينهما من محبة عظيمة، وألفة عميقة تجعلهما في سعادة، وراحة بال يحس كل منهما أنه ملك الدنيا، ويرى أنه أسعد إنسان بزوجه.

والبيت الذي يحقق النجاح الأسري هو البيت الذي ملؤه المحبة بين أفراده.

قال العلامة ابن عثيمين -رحمه الله-: «قالت: كان في مهنة أهله»

---

(١) آداب الزفاف: (ص:٢٩٠).

عني في خدمتهم -عليه الصلاة والسلام- ، فمثلًا الإنسان إذا كان في بيته فمن السنة أن يصنع الشاي مثلًا لنفسه، ويطبخ إذا كان يعرف، ويغسل ما يحتاج إلى غسله، كل هذا من السنة، أنت إذا فعلت ذلك تثاب عليه ثواب سُنة، اقتداءً بالرسول -عليه الصلاة والسلام- وتواضعًا لله -عز وجل- ، ولأن هذا يوجد المحبة بينك، وبين أهلك إذا شعر أهلك أنك تساعدهم في مهنتهم أحبوك، وازدادت قيمتك عندهم، فيكون في هذا مصلحة كبيرة»[1].

وقال العلامة ابن العربي -رحمه الله تعالى-: «فأمر الله -سبحانه وتعالى- الأزواج إذا عقدوا على النساء أن يكون أُدمة ما بينهم، وصحبتهم على التمام والكمال، فإنه أهدأ للنفس، وأقر للعين، وأهنأ للعيش» (ا.هـ)[2].

ومن حسن عشرته لأهله ﷺ وأخلاقه، وتواضعه أنه كان يلاعب أهله، ويسابقهم.

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «سابقني رسول الله ﷺ فسبقته، وذلك قبل أن أحمل اللحم، ثم سابقته بعد ما حملت اللحم فسبقني، فقال: هذه بتلك»[3].

---

(١) شرح رياض الصالحين: (١/ ٨٩٠-٨٩١).
(٢) أحكام القرآن: (١/ ٣٩١).
(٣) أخرجه أبو داود: (٢٥٧٨)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود:(٢٣٢٣).

قال الإمام الشوكاني -رحمه الله- : «وفي الحديثين دليل على مشروعية المسابقة على الأرجل، وبين الرجال والنساء المحارم، وأن مثل ذلك لا ينافي الوقار، والشرف، والعلم، والفضل، وعلو السن، فإنه ﷺ لم يتزوج عائشة إلا بعد الخمسين» (ا.هـ)[1].

وكان ﷺ يرسل جوار من الأنصار يلعبن مع عائشة رضي الله عنها فعنها قالت: «كنت ألعب بالبنات عند النبي ﷺ إذا دخل يتقمعن [2] منه، فيسربهن[3] إليّ فيلعبن معي»[4].

ومن مراعاته لأهله ﷺ، وكريم معاشرته ما جاء عن عائشة رضي الله عنها قالت: «والله لقد رأيت رسول الله ﷺ يسترني بردائه، لكي أنظر إلى لعبهم، ثم يقوم من أجلي، حتى أكون أنا التي أنصرف، فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن، حريصة على اللهو»[5].

قال ابن بطال: «وفيه من حسن خلق الرسول، وكريم معاشرته

---

(١) نيل الأوطار: (٤/ ٥٢٤).

(٢) أي: ينكمشن.

(٣) معناه: يرسلهن.

(٤) أخرجه البخاري: (٦١٣٠)، ومسلم : (٢٤٤٠).

أخرجه البخاري: (٤٥٤) ومسلم (٨٩٢)

(٥)أخرجه البخاري: (٤٥٤)، ومسلم:(٨٩٢).

لأهله ما يلزم المسلم امتثاله، والاقتداء به فيه، ألا ترى وقوفه -عليه الصلاة والسلام- وستره لعائشة، وهي تنظر إلى اللعب»[1].

وبوب عليه البخاري: باب حسن المعاشرة مع الأهل من كتاب النكاح.

ومن تواضعه مع أهله ﷺ أنه كان يسمر معهم، ويحادثهم، فعن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: كان رسول الله ﷺ إذا خرج أقرع بين نسائه فدارت القرعة على عائشة وحفصة، فخرجنا معه جميعًا، وكان رسول الله ﷺ إذا كان في الليل سار مع عائشة يتحدث معها، فقالت حفصة لعائشة: ألا تركبين الليلة بعيري، وأركب بعيرك، فتنظرين وأنظر؟ قالت: بلى. فركبت عائشة على بعير حفصة، وركبت حفصة على بعير عائشة، فجاء رسول الله ﷺ إلى جمل عائشة، وعليه حفصة، فسلم ثم سار معها حتى نزلوا، فافتقدته عائشة، فغارت، فلما نزلوا جعلت تجعل رجلها بين الإذخر[2] وتقول: يارب سلط عليّ عقربًا، أو حية تلدغني، رسولك ولا أستطيع أن أقول له شيئًا.[3]

وفي حديث أم زرع ومحادثته لعائشة بهذا الحديث بيان تواضعه ﷺ

---

(١) شرح صحيح البخاري:(٢/ ١٠٤).

(٢) الإذخر: نبات معروف توجد فيه الهوام غالبًا في البرية.

(٣) أخرجه البخاري: (٥٢١١)، ومسلم: (٢٤٤٥).

مع أهله وإخبارهم بقصص من سلف وتأنيسهم بذلك، ففي الصحيحين عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «جلس إحدى عشرة امرأة، فتعاهدن، وتعاقدن ألا يكتمن من أخبار أزواجهن شيئًا، **قالت الأولى:** زوجي لحم جمل غث على رأس جبل لا سهل فيرتقى، ولا سمين فينتقل، **قالت الثانية:** زوجي لا أبث خبره إني أخاف ألا أذره، إن أذكره أذكر عُجره وبجره، **قالت الثالثة:** زوجي العشنق، إن أنطق أطلق، وإن أسكت أعلق، **قالت الرابعة:** زوجي كليل تهامه لا حر، ولا قر، ولا مخافة، ولا سأمة، **قالت الخامسة:** زوجي إن دخل فهد، وإن خرج أسد، ولا يسأل عما عهد، **قالت السادسة:** زوجي إن أكل لف، وإن شرب اشتف، وإن اضطجع التف، ولا يوبح الكف ليعلم البث. **قالت السابعة:** زوجي غياياء، أو عياياء، طباقاء كل داء له داء، شجك، أو فلك، أو جمع كلا لك. **قالت الثامنة:** زوجي المس مس أرنب، والريح ريح زرنب، **وقالت التاسعة:** زوجي رفيع العماد، طويل النجاد، عظيم الرماد، قريب البيت من الناد. **قالت العاشرة:** زوجي مالك وما مالك، مالك خير من ذلك، له إبل كثيرات المبارك، قليلات المسارح، وإذا سمعن صوت المزهر أيقن انهن هوالك. **قالت الحادية عشرة:** زوجي أبو زرع، فما أبو زرع أناس من حلي أذني، وملأ من شحم عضدي، وبحجني فبجحت إلى نفسي، وجدني في أهل غنيمة،

فجعلني في أهل صهيل وأطيط، ودائس ومنق، فعنده أقول فلا أقبح، وأرقد فأتصبح، وأشرب فأتقنح.

أم أبي زرع، فما أم أبي زرع؟ عكومها رداح، وبيتها فساح، ابن أبي زرع فما ابن أبي زرع، مضجعه كمسل شطبة، ويشبعه وراع الجفرة، بنت أبي زرع فما بنت أبي زرع، طوع أبيها، وطوع أمها، وملء كسائها، وغيظ جارتها، جارية أبي زرع، فما جارية أبي زرع، لا تبث حديثًا تبثيثًا، ولا تنقت ميرتنا تنقيتًا، ولا تملأ بيتنا تعشيشًا، قالت: خرج أبو زرع، والأوطاب تمحضر، فلقي امرأة معها ولدان لها كالفهدين يلعبان من تحت خصرها برمانتين، فطلقني ونكحها، فنكحت بعده رجلًا سريًا، وأخذ خطيًا، وأراح عليّ نعمًا ثريًا، وأعطاني من كل رائحة زوجًا، وقال: كلي أم زرع، وميري أهلك قالت: فلو جمت كل شيء أعطانيه ما بلغ أصغر آنية أبي زرع. قالت عائشة: قال رسول الله ﷺ: (كنتُ لك كأبي زرع لأم زرع)(١).

تفسير ألفاظ الحديث وغريبه:

تعاهدن وتعاقدن: أي ألزمن أنفسهن بالقول موثقًا وعهدًا، وعقدن على الصدق، والوفاء من ضمائرهن لذلك عقدًا.

(١) أخرجه البخاري: (٥١٨٩)، ومسلم: (٢٤٤٨).

قول الأولى:

قولها: لحم جملٍ غث: أي مهزول، الوعر: الذي لا يوصل إليه إلا بتعب ومشقة.

والانتقاء: استخراج النقي من العظم، وهو المخ! وذكر أن المقصود هاهنا هو الشحم وأنه يجوز أن يكون المعنى: أنه يرغب فيه ويختار، يقال: انتقيت الشيء أي تخيرته. والانتقال بمعنى التناقل، كالاقتسام بمعنى التقاسم! وقيل: انتقل ونقل واحد أي ليس بسمين يرغب الناس فيه ويتناقلونه إلى بيوتهم. وينتقي وينتقل روايتان مشهورتان، وقد يجمع بينهما على الشك.

غرض المرأة وصف زوجها بقلة الخير، وبعده مع القلة، وشبهته باللحم الغث الذي لا نقي فيه، أو الذي لا ينتقله الناس إلى بيوتهم، لزهدهم فيه، ومع ذلك هو على رأس جبل صعب لا يوصل إليه إلا بتعب.

وقولها: (لا سهل فيرتقي)، من صفة الجبل! وقولها: (ولا سمين فينتقى أو ينتقل)، صفة اللحم.

ذكر الخطابي أنها أشارت ببعد خيره إلى سوء خلقه، وترفعه بنفسه تيهًا، وأرادت أنه مع قلة خيره يتكبر على عشيرته وأهله، وبقولها: (ولا سمين فينتقل) إلى أنه ليس في جانبه طرف وفائدة، يحتمل بذلك سوء عشرته له.

قول الثانية:

قول الأخرى: زوجي لا أبث خبره، أي: لا أظهره ولا أشيعه.

والعجر: جمع عجرة، وهي العقد في الأعصاب، والعروق المجتمع تحت الجلد.

والبجر: جمع بجرة، وهي انتفاخ يحصل في البطن والصرة، يقال منه: رجل أبجر وامرأة بجراء! وقيل: العجر في الظهر خاصة، والبجر في البطن! وقيل: العجر في الجنب والبطن، والبجر في السرة. وغرضها أني لا أنشر خبره كيلا يفتضح.

وأرادت بالعجر والبجر: عيوبه الباطنة وأسراره.

قول الرابعة:

زوجي كليل تهامة... إلى آخره.

تهامة: ما نزل عن نجد من بلاد الحجاز.

والقر والقرة: البرد، ويقال: قررت، أي: أصابني البرد، والسآمة: الملال.

وليل تهامة طلق لا يؤذي بحر ولا برد، فشبهته به في خلوه من الأذى والمكروه.

وقولها: ولا حر ولا قر قيل معناه: ولا ذو حر ولا قر، كما يقال: فلان عدل، أي ذو عدالة. وقيل: يحتمل أن تريد لا حر فيها ولا قر.

قولها: ولا مخافة ولا سآمة! أي: ليس فيه خلق أخاف بسببه منه، أو ساء مني أو أساء منه.

قال ابن الأنباري: معناه إن ساكني تهامة لا يخافون من خلفهم ولا أمامهم لامتناعهم بالجبال وتحصنهم فيها.

قول الخامسة:

زوجي إن دخل فهد! أي: كان كالفهد قيل وصفته بلين الجانب، لأن الفهد لين المس، كثير السكون، وقيل: وصفته بالنوم، والتغافل والفهد كذلك، والمعنى: أنه يتغافل عن أحوال البيت، وإن وجد فيها خللًا أستحق اللوم به أغضى.

وأسد: واستأسد، أشبه الأسد في الإقدام.

قولها: ولا يسأل عما عهد! أي: هو كريم لا يسأل عما ترك في البيت من زاد وطعام.

ويروى بعده: (ولا يرفع اليوم لغد)، وهو من القوة والكرم أيضًا.

وعن إسماعيل بن أبي أويس أنها أرادت بقولها: (إن دخل فهد) أنه يثب عليها وثبة الفهد، وسريع الوثب.

قال الشارحون: وعلى هذا فهذه المرأة ذمت منه شيئًا، ومدحت شيئًا. ويجوز أن يقال: كنت به عن قوة مجامعته، أو سرعة رغبته فيها، وفي معاشرتها.

ويروى: (إن دخل أسد وإن خرج فهد) على العكس مما سبق، قالوا: وهذا ذم، وعلى هذا فقد روي: (ولا يسأل عما عهد) أي: لا يكلم لسوء خلقه، ويجوز أن يحمل (إن دخل أسد) على شدة طلبه لها وتعلقه بها (وإن خرج فهد) على غفلته عن غيرها، فيخرج عن أن يكون ذمًا.

قول السادسة:

زوجي إن أكل لف، أي: ضم وخلط صنوف الطعام بعضها ببعض، إكثارًا من الأكل، يقال: لف الكتيبة بالأخرى إذا خلط.

قولها: وإن شرب اشتف، أي: استقصى ولم يسئر فيه سؤرًا، والشفافة: بقية الشراب في الإناء، فالاشتفاف: شرب تلك البقية! تصفه بالشره، وقلة الشفقة عليها.

قولها: وإن اضطجع التف، أي: ينام ناحيةً ملتفًا بثوبه، لا يضاجعني، ولا يتحدث معي.

أما قولها: ولا يولج الكف ليعلم البث، فالبث: أشد الحزن الذي تباثه، ثم فيه قولان: قال أبو عبيد: أحسبها كان ببعض جسدها داء أو عيب تكتئب منه، فقالت: إنه لا يدخل اليد ليتعرض له كرمًا منه، ولم يساعده الأكثرون، منهم ابن الأعرابي وابن قتيبة وأبو سليمان وقال: أول كلامها ذم فكيف تمدحه على الأثر وتصفه بالكرم. وقد عدها عروة بن الزبير من الذامات.

- ثم منهم من قال: أرادت أنه لا يضاجعني، ولا يتعرف ما عندي من حب قربه، ويوافقه ما روى (وإذا اضطجع التف).

وقيل: أرادت لا يدخل يده في أموري يعرف ما أكرهه ويصلحه.

وقيل: أرادت أني إذا كنت عليلة لم يجئني، ولم يدخل يده تحت ثيابي ليعرف مالي.

قول السابعة:

زوجي عياياء أو غياياء: الشك في اللفظتين منسوب إلى عيسى بن يونس،والذي صححه أبو عبيد والمعظم: العين، وعدوا الغين تصحيفًا.

والعياياء: فعالاء من العي، وهو من الإبل والناس: الذي عيي بالضرب! ترميه باللعنة.

والطباقاء: المعجم الذي انطبق عليه الكلام، أي انغلق، وقيل: هو الأحمق الذي انطبقت عليه الأمور فلا يهتدي إلى الخروج منها، وقيل: هو الذي لا يأتي النساء، وقيل: هو الثقيل الصدر عند المباضعة.

جوز الزمخشري أن يكون اللفظا (غياياء) بالغين من الغيابة، وهي السحابة، ويقال: غايينا عليه بالسيوف أي: أظللنا، وهو العاجز الذي لا يهتدي لأمر كأنه في ظلمة، وغياية أبدًا، وقيل: يجوز أن يكون من الغي، وهو الانهماك في الشر، وأيضًا الخيبة، وقد فسر به قوله تعالى: (فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا).

قولها: كل داء له داء، الداء العيب والمرض، والمعنى: إن العيوب المتفرقة في الناس مجتمعة فيه، وعلى هذا فقولها له: (داء) خبر لقولها: (كل داء)، وفي (الفائق) أنه يحتمل أن يكون (له) صفة لداء و(داء) خبر الكل أي:كل داء فيه بليغ متناهٍ، كما يقال: إن زيدًا لزيد، ويراد وصفه بالكمال.

قولها: شجك، أوفلك، الشج: الجرح في الرأس والوجه، والفل: الكسر، قيل: أرادت كسر العظام من الضرب، وقيل: كسر القلب بأخذ المال والأثاث، وقيل: كثير الحجة بالخصومة والعذل، ومنهم من قال: أرادت بالفل الطرد والإبعاد، والمعنى: أنه سيء الخلق يضرب امرأته بحيث يشج أو يفل أو يجمعهما معًا، والسماع في شجك وفلك وكلا لك كسر الكاف، لأن المحاورة كانت بين النسوة، فكأنها قالت: إن كنت زوجته أيتها المخاطبة شجك أو فلك.

وقول الثامنة:

المس مس أرنب، حملوه على الوصف بحسن الخلق، ولين الجانب، كما أن الأرنب لين عند المس، ويجوز أن تريد لين بشرته ونعومتها.

والزرنب! قيل: هو نبات طيب الريح، وقيل: شجر طيب الريح، وقيل: الزعفران. وقد يقال: (ذرنب) بالذال، وهما لغتان كزبر وذبر. وأرادت طيب ذكره في الناس، وثناؤهم عليه، أو طيب عرفه.

ويروى بعد الكلمتين (أغلبه، والناس يغلب) وفيه وصفه بالقوة، والشجاعة، وحسن الخلق مع الأهل.

قول التاسعة:

زوجي، رفيع العماد، العماد: عود الخباء! كنت بارتفاعه عن شرفه، وارتفاع بيته.

والنجاد: حمالة السيف، وهو ما يتقلد به! كنت به، عن امتداد قامته، وحسن منظره.

قولها: عظيم الرماد، كناية عن كثرة ضيافته، وقد تشير به إلى طبخه اللحوم والأطعمة التي يحوج طبخها إلى النيران العظيمة، وذكر أن أهل البلاغة يسمون مثل هذه الصنعة الإرداف، وهو: التعبير عن الشيء ببعض لواحة.

قول العاشرة:

زوجي مالك وما مالك، أرادت به تعظيمه والتعجب من أمره.

قولها: مالك خير من ذلك، أي: هو فوق ما يوصف به من الجود، والأخلاق الحسنة، وقد تريد إشارة إلى الذين مدحتهم من قبل، وتقول: هو خير منهم.

وذكروا لقولها: له إبل كثيرات المبارك، قليلات المسارح، معاني: أشهرها: وبه قال أبو عبيد وابن السكيت: أنه يتركها تبرك بفنائه لتكون

معدة للضيفان، فيطعمهم من لحومها وألبانها، وقل ما يسرحها لئلا يتأخر القرى لبعدها.

والمعزف: العود والمقصود أن إبله قد اعتادت منه إكرام الضيفان بالنحر لهم، وبسقيهم، وإتيانهم بالمعازف، فإذا سمعت صوت المعزف أيقنت بالنحر.

في (الفائق) أنه قد قيل: إن المزهر الذي يزهر النار، يقال: زهر النار وأزهرها، أي: أوقدها، أي: إذا سمعن صوت موقد النار.

ويروى في آخر كلامها: (وهو أمام القوم في المهالك) أي: مقدمهم في الحرب لشجاعته.

قول الحادية عشرة:

قول أم زرع: زوجي أبو زرع وما أبو زرع، قيل: تكنية الزوجين بزرع كان على عادة العرب في تكنية الأبوين باسم من ولد بينهما، كأم الدرداء وأبي الدرداء وأم الهيثم وأبو الهيثم في الصحابة.

وقولها: أناس من حلي أذني، أي حركها بما حلاهما به من القرطة. والنوس: تحريك الشيء المتدلي، والإناسة: تحريكه.

قولها: ملأ من شحمٍ عضدي، أي سمنتي بحسن التعهد، واكتفت بالعضد عن سائر الأعضاء فإنهما إذا سمنا سمن سائر البدن.

وقولها: وبجحني فبجحت إلي نفسي، قال ابن الأنباري: أي

عظمني فعظمت عند نفسي. وقال أبو عبيد: فرحني ففرحت، وعظمت عند نفسي.

ويروى (فبجحت إلى نفسي) يقال بجح بالشيء، وبحج به، أي فرح.

قولها: ووجدني في أهل غنيمة بشق فجعلني في أهل صهيل، وأطيط، قيل: (شق) موضع بعينه، ثم أبو عبيد فتح الشين، وكسرها غيره، وذكر الهروي أن الصواب الفتح، وقال ابن أبي أويس: المعنى بشق جبل لقلتهم وقلة غنمهم، وهذا يصح على رواية الفتح، أي: بشق في الجبل كالغار ونحوه، وعلى رواية الكسر، أي: في طرف منه وناحية.

قال آخرون: المعنى بجهدٍ ومشقةٍ يحتملونها في معيشتهم، كما في قوله تعالى: ﴿إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾.

والمقصود: أني كنت في قومٍ قليلي العدد والمال، فلم يأنف من فقر قومي وضعفهم، فنكحني ونفاني إلى قومه، وهم أهل خيل وإبل.

والأطيط: هاهنا صوت الإبل، وقد يسمى صوت غير الإبل أطيطًا.

قولها: ودائسٍ ومنق، فقد قيل: الدائس البيدر، والمنق: الغربال، وقيل: الدائس الذي يدوس الطعام بعد الحصاد! تريد أنهم أصحاب زرع أيضًا، قولها: فعنده أقول فلا أقبح، أي لا يرد قولي، ولا يقال لي: قبحك الله.

والتصبح: نوم الصبحة، وهو أن تنام بعدما تصبح! تريد أنها مخدومة مكفية المؤنة لا تحتاج إلى البكور. وقيل: أرادت لا أنبه، ولا أزعزع حتى أقضي وطري من النوم.

قولها: وأشرب، فأتقمح: أي أرفع رأسي عن الإناء للري والاستغناء عن الشرب، من قولهم: (بعير قامح) إذا رفع رأسه من الحوض فلم يشرب، والمعنى: أشرب حتى إني لأرى المشروب فأصرف عن تمام الشبع.

قولها: عكومها رداح: العكوم: الأحمال والأعدال التي فيها الأمتعة، الواحد عكم. والرداح: العظيمة الممتلئة، وقيل: الثقيلة، وجوز بعضهم أن يقال: كنت بالعكوم عن الكفل.

والفياح: والأفيح: الواسع، يقال: فاح بفيح إذا اتسع، ويروى بدل الفياح: فساح بتخفيف لاسين، والفساح، والفسيح الواسع أيضًا.

قولها: (مضجعة كمسل شطبةٍ)، المسل: مصدر كالسل، وهو يقام مقام المسلول، والمعنى: كمسلول شطبة. والشطبة: ما ينزع من القضبان الدقاق من جريد النخل، ينسج منها الحصر، وقد يشق الجريد فيجعل قضبانًا دقاقًا، أي:هو صوب اللحم، خفيف الخصر، والعرب تمدح بذلك، ويستدل به على الشجاعة.

وقيل: الشطبة السيف، شبهته بسيف سل من غمده.

في (الفائق) أن الجفر: الماعزة إذا بلغت أربعة أشهر وفصلت وأخذت في الرعي.

والذراع: يذكر ويؤنث. والرواية: تشبعه بالتاء.

قولها: ملء كساءها، أي تملأه بكثرة اللحم، وهي مستحبة في النساء ويروى (صفر ردائها، وملء إزارها)، وفيه وصف بالضمور، وعظم الكفل، لأن طرف الرداء يقع على مقعد الإزار.

قولها: وغيظ جارتها، الجارة: الضرة، أي يغيظ الضرة ما يرى من عفتها وجمالها.

ويروى بدله (وعبر جارتها)، وفسره ابن الأنباري بوجهين: أحدهما: أنها تري منها ما يعتبر عينها ويبكيها من الغيظ والحسد.

والآخر: أنها ترى من عفتها من يعتبر به، الأول من العبرة، والثاني من العبرة.

ويروى: (وعقر جارتها)، وهو الجرح، ومنه قولهم: كلب عقور: أي تجرح قلبها.

ويروى: (وعقر جارتها)، أي يعطل الزوج الجارة لرغبته في هذه الممدوحة فلا تحبل، فتصير كأنها عاقر.

قولها: لا تبث حديثنا تبثيثًا، ويروى بالباء والنون، وهما متقاربان؛ يقال: بث الخبر أي نشره وأشاعه، ونث الحديث ينثه نثًا أفشاه، ويقال: نث اغتاب واطلع على السر، وهما متقاربان.

والمقصود أنها لاتخرج سرًا ولا تظهره. ولقرب اللفظتين في المعنى، روى بعضهم الفعل بالباء والمصدر بالنون، ومخالفة المصدر الفعل كما في قوله تعالى: (وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا) ونظايره.

قولها: ولا ينتقل ميرتنا تنقيتا، الميرة: الطعام، والميرة أيضًا ما يمتاره البدوي من الحاضرة. والتنقيت: الإسراع في السير. والمعنى إنها لا تنقل طعامنا ولا تذهب ولا تفرقه مسرعة: تصفها بالأمانة.

قولها: ولا تملأ بيتنا تعشيشًا، روي بالغين المعجمة من الغش، أي: لا تغشنا، وقيل: أرادت النميمة؛ ورواه الأكثرون بالعين، ثم قيل: هو مأخوذ من عش الطائر.

قال أبو سليمان الخطابي: وهو من قولهم عش الخبز، إذا تكرج وفسد.

يريد أنها تحسن مراعاة الطعام، وتعهده وتطعم منه الشيء بعد الشيء طريًا، ولا يغفل عنه فيفسد.

ويروى في صفة الجارية: (لا تنجث عن أخبارنا تنجيثًا، ولا تغث طعامنا تغثيثًا)، والتنجيث: الاستخراج والإشاعة، والإغثاث والتغثيث إفساد الطعام، والكلام وغيرهما.

في بعض الروايات: (طهاة أبي زرع وما طهاة أبي زرع، لا تفتر ولا تعدى تقدح قدرًا تنصب أخرى فتلحق الآخرة بالأولى)، والطهاة:

الطباخون، وأرادت أنهم لا يفترون عن الطبخ ولا يصرفون عنه. والقدح: الغرف، ويقال للمغرفة: مقدحة، والقدور يلحق بعضها بعضًا، فلا ينقطع الطعام عن الضيفان.

قولها: والأوطاب تمخض، والأوطاب جمع وطب: وهو سقاء اللبن خاصة، والأفعال في جمع فعل قليل والأغلب الفعال، وقد ورد في بعض الروايات: (والوطاب تمخض)، على فوق الغالب، وتمخض: تحرك لاستخراج الزبد، قيل: إشارته بذلك إلى كثرة اللبن عندهم.

قولها: كالفهدين، شبهتهما بالفهدين في كونهما فارهين ممتلئين حسني الصورة.

قولها: يلعبان من تحت خصره برمانتين، قال ابن أبي أويس: أرادت بالرمانتين: ثدييها، وقال أبو عبيد وغيره: وصفتها بعظم الكفل، تريد أنها إذا استلقت نبا بها الكفل عن الأرض حتى يصير تحتها فجوة تجري فيها الرمان.

والسري: السيد الشريف، ويجمع على سريين وأسريا وسراة.

والفرس الشري: الذي يسري في عدوه، أي: يلج ويتمادى،

والخطى: الرمح المنسوب إلى الخط، وهو موضع على ساحل البحر تنتقل إليه الرماح الهندية ثم ينقل منها، وقيل: هو ساحل البحر.

قولها: وأراح علي، أي ردها من المرعى.

نعمًا ثريًا، الثري: الكثير، يقال: أثرت الأرض إذا كثر ترابها، وأثرى بنو فلان: كثرت أموالهم، والثروة: المال الواسع، والثراء: كثرة المال، يقال: رجل ثروان، وامرأة ثروى، وتصغيرها ثريًا، وذكر ثريا حملًا على اللفظ.

قولها: من كل رائحة زوجًا، أي: ماشية تروح.

قولها: زوجًا، قيل: الزوج يقع على الاثنين كما يقع على الفرد، ثم يقال: زوجان.

وقد روي: (من كل سائمة زوجين): وقيل: الزوج الفرد، إذا كان معه آخر، وذكر بعضهم أنه يجوز أن يريد أنه أعطاها من كل رائحة صنفًا، وقد يعبر عن الصنف بالزوج، وقد قيل ذلك في قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾.

قوله: وميري أهلك، أي: خذي الطعام، واذهبي به إليهم، تريد أنه وسع عليها وعلى أهلها.

قولها: أصغر آنية أبي زرع، يروي: (أصفر) بالفاء من الصفر، وهو الخالي، يريد: أن الذي نكحته -وإن كان بالصفات المذكورة- فإن قدره لا يبلغ قدر أبي زرع.

وفي بعض الروايات: (فاستبدلت بعده -أي بعد أبي زرع- ولك

بدل أعور)، وهذا مثل معروف، أي: البدل قاصر عن الأصل غالبًا، نسبته إليه كنسبة الأعور إلى ذي العينين[1].

فمن هذه الأحاديث الشريفة يتعلم المؤمن من النبي ﷺ التواضع مع الأهل والزوجات، وحسن العشرة، يقول القاضي عياض -رحمه الله- في شرحه لحديث أم زرع: «في استهلال هذا الحديث من الفقه وحسن عشرة الرجل مع أهله، وتأنيسهن واستحباب محادثتهن بما لا إثم فيه، كما فعل النبي ﷺ هاهنا بحديثه لعائشة - رضي الله عنها - ومن كان معها من أزواجه بخبر هؤلاء النسوة، وهكذا ترجم البخاري عليه (باب حسن المعاشرة مع الأهل) وقد وردت الآثار الصحيحة بحسن عشرته ﷺ لأهله، ومباسطته إياهم، وكذلك عن السلف الصالح.

وقد كان مالك -رحمه الله- يقول في ذلك مرضاة لربك ومحبة في أهلك، ومثراة في مالك، ومنسأة في أجلك، قال: وقد بلغني ذلك عن بعض أصحاب النبي ﷺ، وكان مالك -رحمه الله- من أحسن الناس خلقًا مع أهله وولده، وكان يحدث يقول: (يجب على الإنسان أن يتحبب إلى أهل داره حتى يكون أحب الناس إليهم)» (ا.هـ)[1]

---

(١) راجع لهذه المعاني فتح الباري، وشرح مسلم وغيرهما، وقد ألفت كتب في شرح حديث أم زرع وذكر غريبه وفوائده ومنها كتاب (درة الضرع في شرح حديث أم زرع) للرافعي، وكتاب (بغية الرائد لما في حديث أم زرع من الفوائد) للقاضي عياض المالكي.

(١) بغية الرائد فيما في حديث أم زرع من الفوائد (ص: ٣٦-٣٧).

وفي الحديث الصحيح عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا، وخياركم خياركم لنسائهم»[1].

وفي شرح العلامة الشوكاني لهذا الحديث كلام جميل بديع أسوقه إليك بنصه، حيث يقول -رحمه الله-: «قوله: (وخياركم خياركم لنسائهم) وكذلك قوله في الحديث الآخر: (خيركم خيركم لأهله) في ذلك تنبيه على أعلى الناس رتبة في الخير، وأحقهم بالإنصاف به هو من كان خير الناس لأهله فإن الأهل هم الأحقاء بالبشر، وحسن الخلق، وجلب النفع، ودفع الضر، فإذا كان الرجل كذلك فهو خير الناس، وإن كان على العكس من ذلك فهو في الجانب الآخر من الشر، وكثيرًا ما يقع الناس في هذه الورطة، فترى الرجل إذا لقي أهله كان أسوأ الناس أخلاقًا، وأشحهم نفسًا، وأقلهم خيرًا، وإذا لقي غير الأهل من الأجانب لانت عريكته، وانبسطت أخلاقه، وجادت نفسه، وكثر خيره، ولا شك أن من كان كذلك، فهو محروم التوفيق زائغ عن سوء الطريق نسأل الله السلامة» (ا.هـ)[2].

ومن تواضعه ﷺ مع أهله أنه كان يردفهم معه على البعير، ودليل ذلك ما جاء عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه أقبل هو وأبو طلحة مع النبي ﷺ ومع النبي صفية يرادفها على راحلته)[3].

---

(١) أخرجه الترمذي: (١١٦٢)، وصححه الألباني في الصحيحة: (٢٨٤).

(٢) نيل الأوطار (٣/ ٦٦٣)

(٣) أخرجه البخاري (٦١٨٥)،ومسلم(١٣٤٥).

تواضعه ﷺ مع نفسه وإخوانه الأنبياء

لـم يكـن تواضـعه ﷺ مـع الآخـرين في معاملتـه فحسـب، بـل كـان ﷺ متواضـعًا في نفسـه، وإن دل ذلـك علـى شـيءٍ فإنمـا يـدل علـى عمـق بـذرة التواضـع فيـه، -عليـه الصـلاة والسـلام- ، فلـم يكن تصنعًا، أو تكلفًا -حاشاه من ذلك-.

ومن تواضعه ﷺ في نفسه:

١- عن أبي مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أتى النبي ﷺ رجل يكلمه فأرعد، فقال: «هون عليك فلست بملك، إنما أنـا ابـن امـرأة مـن قـريش كانـت تأكل القديد[1]»[2].

وفي هـذا الحـديث ترفع النبـي ﷺ عـن صـفات المتكـبرين، ممـن يرتـاح قلبـه، وتبـتهج أسـاريره، إذا رأى النـاس ترتجـف منـه، وترتعـد لرؤيته، ويرى أن هذا من لوازم منصبه ومكانته، ولكن النبي ـ صـلي الله عليه وسـلم ـ صـاحب الخلـق الرفيـع، والمعشـر الحسـن ، عنـدما رأى الرجل يرتعد، وعليه علامات الخوف والهلع من رؤيته -عليه الصـلاة والسلام- ، هـون عليـه بقولـه: (هـون عليـك ولسـت بملـك) وأضـاف ذلك بقوله: (إنما أنا ابن امرأة من قريش كانـت تأكـل القديـد). فصـلى عليك الله يا إمام المتواضعين، وقدوة المخبتين.

---

(١) هو اللحم المملح المجفف في الشمس.

(٢) أخرجه ابن ماجة: (٣٣١٢)، والحاكم في المستدرك: (٤٣٦٦)، وصححه الألباني في (صـحيح الجامع: (٧٠٥٢).

٢- عن أبي العالية قال: حدثني ابن عم نبيكم ﷺ -يعني ابن عباس رضي الله عنهما- عن النبي ﷺ قال: «ما ينبغي للعبد أن يقول: (أنا خير من يونس ابن متّى)، ونسبه إلى أبيه»(١).

قال الإمام النووي -رحمه الله-: «قال العلماء: هذه الأحاديث تحتمل وجهين: أحدهما أنه ﷺ قال هذا قبل أن يعلم أنه أفضل من يونس، فلما علم ذلك قال: أنا سيد ولد آدم، ولم يقل هنا أن يونس أفضل منه، أو من غيره من الأنبياء. صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

والثاني: أنه ﷺ قال زاجرًا على أن يتخيل أحد من الجاهلين شيئًا من حط مرتبة يونس ﷺ من أجل ما في القرآن العزيز من قصته، قال العلماء: وما جرى ليونس -عليه الصلاة والسلام- لم يحطه من النبوة، مثقال ذرة، وخص يونس بالذكر لما ذكرناه في القرآن بما ذكر»(٢).

وقال النووي -رحمة الله عليه-: «أي: من حيث النبوة، فإن الأنبياء فيهما سواء. وإنما تفاوت في الدرجات ونحوهما...»(٣).

وقال الإمام الخطابي: «فما قاله في يونس -صلوات الله وسلامه عليه- فقد يتأول على وجهين: أحدهما قوله: ما ينبغي لعبد أراد به من

---

(١) أخرجه مسلم: (٢٣٧٧)، والبخاري: (٣٣٩٥).
(٢) شرح مسلم: (١٥/ ١١٠ - ١١١).
(٣) فيض القدير: (٤/ ٤٨٣).

سواه من الناس دون نفسه، والوجه الآخر: أن يكون ذلك عامًا مطلقًا وفي غيره من الناس، ويكون هذا القول منه على الهضم من نفسه، وإظهار التواضع لربه، يقول: لا ينبغي لي أن أقول: أنا خير منه، فإن الأفضلية التي نلتها كرامة من الله سبحانه، وخصوصية منه، لم أنلها من قبل نفسي، ولا بلغتها بحولي وقوتي، فليس لي أن أفتخر بها، وإنما يجب عليّ أن أشكر عليهما ربي، وإنما خص يونس بالذكر فيما ترى، والله أعلم، لما قصه الله تعالى علينا من شأنه، وما كان من قلة صبره على أذى قومه، فخرج مغاضبًا، ولم يصبر كما صبر أولو العزم من الرسل.

قلت: وهذا أولى الوجهين وأشبههما بمعنى الحديث، فقد جاء من غير هذا الطريق أنه قال ﷺ: (ما ينبغي لنبي أن يقول: إني خير من يونس ابن متى)، فعم به الأنبياء كلهم، فدخل هو في جملتهم، وقد ذكره أبو داود في هذا الباب» (ا.هـ)[1].

وقال ابن قتيبة: «وكذلك قوله: (لا ينبغي لأحد أن يقول: أنا خير من يونس ابن متى) يدل على معنى التواضع، لأن يونس دون غيره من الأنبياء مثل إبراهيم، وموسى، وعيسى، يريد إذا كنت لا أحب أن أفضل على يونس، فكيف غيره ممن هو فوقه من أولي العزم من

(١) تفسير سنن أبي داود: (٣/ ١٤٦).

الرسـل. وقـد قـال تعـالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ﴾ [القلم:٤٨]. أراد يونس لم يكن له صبر غيره من الأنبياء. وفي هذه الآية ما يدل على أن رسول الله أفضل منه، لأن الله يقول له، ولا تكن مثله» (ا.هـ)[١].

وقال ابن قتيبة -رحمه الله-: «...أن النبي ﷺ أراد بقوله: (لا تفضلوني عليه طريق التواضع...)» (ا.هـ)[٢].

٣- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «استب رجلان، رجل من المسلمين، ورجل من اليهود، فقال المسلم: والذي اصطفى محمدًا على العالمين، فقال اليهودي: والذي اصطفى موسى على العالمين، فرفع المسلم يده عند ذلك، فلطم وجه اليهودي، فذهب اليهودي إلى النبي ﷺ، فأخبره مما كان من أمره، وأمر المسلم، فدعا النبي ﷺ المسلم، فسأله عن ذلك فأخبره، فقال النبي ﷺ: (لا تخيروني على موسى، فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأصعق معهم، فأكون أول من يفيق، فإذا موسى باطش جانب العرش، فلا أدري أكان فيمن صعق، فأفاق قبلي، أو كان ممن استثنى الله)»[٣].

---

(١) تأويل مختلف الحديث: (ص:٢٤١).

(٢) تأويل مختلف الحديث:(ص:٢٤١).

(٣) أخرجه البخاري: (٢٤١١).

قال ابن قتيبة «وأراد بقوله: (لا تخيروني على موسى) طريق التواضع كما قال أبو بكر الصديق: وُلِّيتُكُم ولستُ بخيركم...»[1].

قال في مرقاة المفاتيح: «قال النوريشتي -رحمه الله- قوله: (لا تخيروني على موسى) أي: لا تفضلوني عليه، قول: قاله على سبيل التواضع أولًا، ثم ليردع الأمة عن التخيير بين أنبياء الله من تلقاء أنفسهم.

ثانيًا: فإن ذلك يفضي بهم إلى العصبية فينتهز الشيطان منهم عند ذلك فرصة يدعوهم إلى الإفراط والتفريط، فيطرون الفاضل فوق حقه، ويبخسون المفضول حقه، فيقعون في مهواة الغي، ولهذا قال: لا تخيروا بين الأنبياء، أي لا تقدموا على ذلك بأهوائكم، وآرائكم بل بما آتاكم الله من البيان...» (ا.هـ).

٤- عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ. فقال: يا خير البرية، فقال رسول الله ﷺ: «ذلك إبراهيم»[2].

قال الإمام النووي -رحمه الله-: «قال العلماء: إنما قال ﷺ هذا تواضعًا، واحترامًا لإبراهيم ﷺ لخلته وأبوته، وإلا فنبينا أفضل، كما قال ﷺ: (أنا سيد ولد آدم) ولم يقصد به الافتخار، ولا التطاول على من تقدمه، بل قاله بيانًا لما أمر ببيانه وتبليغه.

---

(١) تأويل مختلف الحديث: (٢٤٨).

(٢) أخرجه مسلم: (٢٣٦٩).

ولهذا قال ﷺ: (ولا فخر) لينفي ما قد يتطرق إلى بعض الأفهام السخيفة، وقيل: يحتمل أنه ﷺ قال: إبراهيم خير البرية قبل أن يعلم أنه سيد ولد آدم» (ا.هـ)[1].

وقال في عون المعبود: «قال المنذري: وأخرجه مسلم والنسائي، قيل: يحتمل أنه قال قبل أن يوحى إليه بأنه خير منه، أو يكون على جهة التواضع، وكره إظهار المطاولة على الأنبياء، انتهى كلام المنذري» (ا.هـ)[2].

وقال ابن رجب: «وقد تأوله الأئمة، فقال الإمام أحمد: هو على وجه التواضع» (ا.هـ) [3]

٥- عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ: «إن عفريتًا من الجن تفلت البارحة ليقطع عليّ صلاتي، فأمكنني الله منه، فأخذته فأردتُ أن أربطه على سارية من سواري المسجد حتى تنظروا إليه كلكم فذكرت دعوة أخي سليمان (رب هب لي ملكًا لا ينبغي لأحد من بعدي) فرددته خاسئًا» متفق عليه[4].

فلم يرد النبي ﷺ أن يزاحم أخاه سليمان -عليه الصلاة والسلام- فيما أعطاه الله من الملك.

---

(١) شرح مسلم: (١٥/ ١٠٢).
(٢) عون المعبود: (١٢/ ٣٣٥)
(٣) فتح الباري (١/ ٣٩)
(٤) أخرجه البخاري:(٤٦١)

تواضعه ﷺ
مع أصحابه الكرام
-رضي الله عنهم-

لقد كان ﷺ لين الخلق، كريم الطبع، جميل المعاشرة، طلق الوجه بسامًا. متواضعًا من غير ذلة، جوادًا من غير سرف، رقيق القلب، رحيمًا بكل مسلم، خافض الجناح للمؤمنين، لين الجانب لهم.[1]

ولهذه الأخلاق التي تحلى بها النبي ﷺ أثر عظيم في تبليغه دعوة ربه، وحب الصحابة له ﷺ والتفافهم حوله، وفدائه بالغالي والنفيس، ولذلك جاء في التنزيل: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران:١٥٩]، فأثنى الله تعالى على نبيه باللين للمؤمنين، وفي آية أخرى ذكر المولى -عز وجل- أن اللين للمؤمنين، والشدة على الكافرين من صفات الرسول ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم فقال تعالى: (مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ...) الآية.

قال قتادة: «في قوله تعالى: (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ...) الآية أي: والله طهره من الفضاضة، والغلظة، وجعله قريبًا، رحيمًا، رؤوفًا بالمؤمنين.

وقال الحسن: هذا خلق محمد ﷺ نعته ربه».

وقال العلامة أبو حبان في (البحر المحيط) (٣/ ٧٨): «قوله (وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ): بين تعالى أن ثمرة اللين هي المحبة، والاجتماع عليه، وأن خلافها من الجفوة، والخشونة مؤدٍ

---

(١) مدارج السالكين: (٢/ ٧٣).

إلى التفرق، والمعنى: لو شافهتهم بالملامة على ما صدر منهم من المخالفة، والقرار لتفرقوا من حولك هيبة منك وحياءً، فكان ذلك سببًا لتفرق كلمة الإسلام، وضعف مادته، وإطماعًا للعدو. واللين والرفق، فيكون فيما لم يفض إلى إهمال حق من حقوق الله تعالى» (ا.هـ).

والمولى -عز وجل- يقول في كتابه العظيم آمرًا رسوله الكريم: ﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الشعراء:٢١٥].

فأمر الله نبيه ﷺ في هذه الآية بخفض جناحه للمؤمنين، وهو كناية عن لين الجانب والتواضع،

وقد كان ﷺ مع أصحابه خير الصاحب لهم، ونعم المربي، وأحسن معلم وأب ﷺ فتناقلت الأخبار، ووردت الآثار عنه بذلك صلى الله عليه وسلم.

مظاهر تواضعه ﷺ مع أصحابه

١- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: إن رجلًا أتى النبي ﷺ يتقاضاه، فأغلظ، فهم به أصحابه، فقال رسول الله ﷺ: «دعوه فإن لصاحب الحق مقالًا» ثم قال: «أعطوه سنًا مثل سنه». قالوا: يا رسول الله لا نجد إلا مثل سنه. فقال: «اعطوه فإن من خيركم أحسنكم قضاءً»[1].

فانظر إليه ﷺ وتأمل أخلاقه العالية مع رجل جاء إليه بغلظة، وفظاظة، ورغم ما عنده ﷺ من الأصحاب والذين هم على أكمل الاستعداد للفتك بالرجل بمجرد إشارة منه ﷺ، بل وقد هم الصحابة بذلك لما رأوا من شدة الرجل، فكان من حلمه العظيم، وتواضعه الكريم - عليه الصلاة والتسليم - أن نهاهم وزيادة في كرمه، وعلو أخلاقه، وسمو فضله أعطاه أفضل من سنه.

فهل تجد البشرية رجلًا كهذا، عجزت وعقمت وأنى لها بمثله ﷺ.

قال الحافظ ابن حجر -رحمه الله- (الفتح) (٥/ ٥٧): «وفيه حسن خلق النبي ﷺ وعظم حلمه، وتواضعه، وإنصافه» (ا.هـ).

(١) أخرجه البخاري: (٢٣٠٦)، ومسلم: (١٦٠١).

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «كنا يوم بدر كل ثلاثة على بعير كان أبو لبابة، وعلي بن أبي طالب زميلي رسول الله ﷺ وكانت عقبة دوره في المشي فقالا: نحن نمشي عنك، فقال رسول الله ﷺ: (ما أنتما بأقوى مني، وما أنا بأغنى عن الأجر منكما)»[1].

إن هذا المشهد العظيم يعلمنا أن الإنسان إذا كبر قدره، وعظم أمره لا يزيده ذلك إلا تواضعًا، ولينًا لإخوانه المسلمين، فما كان له ﷺ أن يترك أصحابه يتعبون في المشي، وهو راكب على البعير، وإنما في هذه مثله مثلهم يتناوب معهم، ويأخذ دورهم فيه.

رغم أنه القائد المسدد، والهادي المرشد، إلا أنه ﷺ يضرب مثلًا من أروع الأمثلة في تواضع القائد، وحرصه على رعيته، وحبه للأجر.

قال الطيبي: «فيه إظهار غاية التواضع منه، والمواساة مع الرفقة، والافتقار إلى الله تعالى» (ا.هـ)[2].

٢- عن أبي مسعود قال: أتى النبي ﷺ رجل يكلمه فأرعد، فقال: «هون عليك، فلست بملك إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد»[3].

---

(١) أخرجه أحمد: (٣٨٨٣)، وصححه الألباني في الصحيحة: (٢٢٥٧).

(٢) مرفاة المفاتيح – باب آداب السفر.

(٣) رواه ابن ماجه: (٣٣١٢)، وصححه الألباني في الصحيحة: (١٨٧٦).

٣- من عظات هذا الحديث: أن النبي ﷺ لم يكن من المتكبرين على الخلق، المتجبرين على الحق، أولئك الذين لا تنشرح صدورهم، أو يطمئن بالهم إلا عند ما يرون الناس ترتجف خوفًا منهم، وتعلوهم الرهبة لرؤيتهم.

بل ويسعي هؤلاء الطغاة لتحقيق هذا في الخلق ما استطاعوا إليه سبيلًا، وما وجدوا إلى ذلك طريقًا.

إن رسول الله ﷺ يعلمنا أن هذه الأخلاق بغيضة، وسيئة.

فعندما رجف الرجل، وارتعدت فرائصه، هون عليه النبي ﷺ وهدأ من روعه، وطمأن نفسه بتلك الكلمات.

٤- عن أبي هريرة وأبي ذر رضي الله عنهما قالا: «كان النبي ﷺ يجلس بين ظهراني أصحابه، فيجيء الغريب، ولا يدري أيهم هو؟ حتى يسأل، فطلبنا إلى النبي ﷺ أن نجعل له مجلسًا يعرفه الغريب إذا أتاه، فبنينا[1] له دكانًا من طين، فكان يجلس عليه، ونجلس بجانبيه»[2].

وما زالت مظاهر تواضعه ﷺ تتجلى لنا من خلال هذه المواقف،

---

(١) قال في عون المعبود: (١٢/ ٣٦٤): (دكانًا: بضم الدال وشدة الكاف، قال في مجمع البحار: الدكان الدكة، وقيل نونه زائدة انتهى، وقال في القاموس: بالفتح. والدكان بالضم بناء يسطح أعلاه للمقعد) (ا.هـ).

(٢) أخرجه أبو داود: (٤٦٩٨)، والنسائي (٤٩٩١)، وصححه الألباني في صحيح النسائي: (٤٦١٨).

وإنها لمواقف تأسر القلب، وتأخذ بلب المسلم من عظيم ما يرى، فنبي بهذا الفضل، وتلك المنزلة يأتي الغريب، فيعجز أن يميز بين محمد ﷺ وأصحابه، ويصعب عليه ذلك.

فلم يكن ثمة بهرج حوله يميزه، أو لباس يزينه كما تفعل الملوك والرؤساء، وليس تحت قدميه عرش يحمله، وإنما هي الأرض جالس عليه، وفي وسط أصحابه الكرام.

وعند ما أرادوا منه أن يتميز ليس إلا ليعرفه الغريب، ويسأله عن دينه، كي لا يجد حرجًا في البحث عنه ﷺ والترقب لمعرفة من هو رسول الله ﷺ.

فعندما وضعت له دكة يجلس عليها ويتميز بها، فلم يكن ثمة عرش مزخرف، ولا كرسي مهندس.

فهو ﷺ في حياته ينقلنا من تواضع إلى آخر. إنه قلب استكان لربه، وخضع لباريه.

٥- عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ جاء إلى الساقية فاستسقى فقال العباس: يا فضل اذهب إلى أمك فأتِ رسول الله ﷺ بشراب من عندها، فقال: (اسقني) قال: يا رسول الله إنهم يجعلون أيديهم فيه، قال: (اسقني)، فشرب منه، ثم أتى زمزم، وهم يسقون، ويعملون فيها، فقال: (اعملوا فإنكم على عمل صالح، ثم قال: لولا

أن تغلبوا لنزلت حتى أضع الحبل على هذه، وأشار إلى عاتقه)[1].

أراد العباس في هذا الحديث أن يبعد النبي ﷺ يوم أن طلب السقيا عن الشرب من الماء الذي يشرب منه الناس، حيث وإنهم يجعلون أيديهم فيه. لكنه ﷺ لم يتقذر من ذلك، أو يكره أن يشارك أصحابه في ذلك.

فرفض الإكرام الذي أراده العباس من أجل أن يعلم الأمة خلق التواضع، ويربيها على البعد عن الكبر، والأنفة.

يقول ابن حجر -رحمه الله- موضحًا هذا المعنى كما في (الفتح) (٣/ ٤٩٢): «وفيه أنه لا يكره طلب السقي من القبوة، ولا رد ما يعرض على المرء من الإكرام إذا عارضته مصلحة أولى منه، لأن رده لما عرض عليه العباس مما يؤتى به من نبيذ[2] لمصلحة التواضع التي ظهرت من شربه مما يشرب منه الناس.

وفيه الترغيب في سقي الماء خصوصًا ماء زمزم، وفيه تواضع النبي ﷺ وحرص أصحابه على الاقتداء به، وكراهة التقذر، والتكره للمأكولات، والمشروبات.

---

(١) أخرجه البخاري: (١٦٣٩).

(٢) قال الإمام ابن باز في تعليقه على الفتح:(٣/ ٤٩٢): (النبيذ كل شراب نبذ سواءً تعجلوا شربه وهو حلو قبل أن يتخمر وهو الأكثر، وهو المراد هنا، أو تركوه حتى يتخمر وكل ذلك يسمى عندهم نبيذا)ا.هـ.

قال ابن المنير في الحاشية: وفيه أن الأصل في الأشياء الطهارة لتناوله ﷺ من الشراب الذي غمست فيه الأيدي» (ا.هـ).

٦- عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «أقيمت الصلاة، ورجل يناجي رسول الله ﷺ، فما زال يناجيه حتى نام أصحابه ثم قام فصلى»[(١)].

طلب هذا الرجل من النبي ﷺ أن يناجيه كما جاء في رواية عند مسلم: «أقيمت صلاة العشاء، فقال رجل: لي حاجة، فقام النبي ﷺ يناجيه حتى نام القوم، أو بعض القوم، ثم صلوا».

فلم يكن منه ﷺ عند ما احتاجه الرجل الغلظة، أو الفظاظة، وإنما لبى له طلبه، وأعطاه مراده الذي يريده فتكلم معه، وناجاه بحضور أصحابه.

قال الإمام النووي -رحمه الله- (شرح مسلم) (٤/ ٢٥٨): «وأما فقه الحديث ففيه جواز مناجاة الرجل بحضرة الجماعة، وإنما نهى عن ذلك بحضرة الواحد، وفيه جواز الكلام بعد إقامة الصلاة، ولا سيما في الأمور المهمة، ولكنه مكروه في غير المهم، وفيه تقديم المهم فالأهم من الأمور عند ازدحامها، فإنه ﷺ إنما ناجاه بعد الإقامة في أمر مهم من أمور الدين مصلحته راجحة على تقديم الصلاة، وفيه أن نوم الجالس لا ينقض الوضوء...» (ا.هـ).

---

(١) أخرجه البخاري: (٦٤٢)، ومسلم: (٣٧٦).

وهكذا كانت عادته ﷺ في قضاء حوائج الناس وتعلمهم ومنه:

٧- عن أبي رفاعة قال: انتهيت إلى النبي ﷺ وهو يخطب. قال: فقلت: «يا رسول الله رجل غريب جاء يسأل من دينه، قال: فأقبل علي رسول الله ﷺ وترك خطبته حتى انتهى إليّ فأتي بكرسي حسبت قوائمه حديدًا قال: فقعد عليه رسول الله ﷺ وجعل يعلمني مما علمه الله، ثم أتى إلى خطبته فأتم آخرها»[1].

لقد بُعث النبي ﷺ معلمًا، ولما جاءه الرجل يريد أن يتعلم دينه، ويعرف إيمانه ما كان منه ﷺ إلا أن تصرف تصرف المعلم الرحيم، الرؤوف، الرفيق بأهل الحاجة والسؤال. فنزل من على منبره، وترك خطبته من أجل شخص واحد، فلم يتركه وهو في تلك الحاجة. وإنما علمه ودرسه، وهذبه وفقهه.

قال الإمام النووي -رحمه الله- (شرح مسلم) (٦/ ١٣٩): «وفيه تواضع النبي ﷺ ورفقه بالمسلمين، وشفقته عليهم، وخفض جناحه لهم» (ا.هـ).

٨- عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا لما يعلمون من كراهيته لذلك»[2].

---

(١) أخرجه مسلم: (٨٧٦).

(٢) أخرجه الترمذي: (٢٧٥٤). والحديث صححه الألباني في الصحيحة: (٣٥٨).

إن من عادة المتكبرين حبهم أن يتمثل الناس قيامًا لهم.

بل وترى فيهم من يغضب، ويقطن حاجبيه إذا لم يقم له، ويعظم بهذه الطريقة، وللأسف هذا ما نراه من بعض المسلمين، لاسيما في سلك التعليم.

وفي حديث معاوية بن أبي سفيان ﵁ قال: قال النبي ﷺ: «من سره أن يتمثل له الناس قيامًا، فليتبوأ مقعده من النار»[1].

ولقد كان النبي ﷺ معصومًا من أن يحب ذلك، بل صرح أنس بكراهيته له -عليه الصلاة والسلام-.

ولهذا كان الصحابة يمتنعون عن القيام له ﷺ، وهذا من تواضعه وحسن أخلاقه وعلو أدبه ﷺ.

قال في (تحفة الأحوذي) (٨/ ٢٤): «لم يقوموا لما يعلمون من كراهيته لذلك، أي لقيامهم تواضعًا لربه، ومخالفته لعادة المتكبرين، والمتجبرين، بل اختار الثبات على عادة العرب في ترك التكلف في قيامهم، وجلوسهم، وأكلهم، وشربهم، ولبسهم، ومشيهم، وسائر أفعالهم، وأخلاقهم» (ا.هـ).

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب: (٩٧٧)، والترمذي: (٢٧٥٥)، وأبو داود: (٥٢٢٩)، وهو في الصحيحة: (٣٥٧).

٩- عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: «كان النبي صلى الله عليه وسلم ينقل التراب يوم الخندق حتى اغبر بطنه»(١).

لقد لقي أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة الخندق وهي الأحزاب، معاناة كثيرة، وكان من ذلك حفرهم للخندق، ومن كريم أخلاقه، وتواضعه أنه لم يقف موقف المتفرج الذي يلقي الأوامر وحسب، وبصفته القائد، ولكنه صلى الله عليه وسلم شمر عن ساعديه، ونزل بنفسه معهم يشاركهم في هذا العمل، وينقل التراب بيده الشريفة صلى الله عليه وسلم.

وقد أضاف إلى هذا ليشد من عزمهم، ويسلي عنهم أن ارتجز بأبيات ابن رواحة رضي الله عنه.

والله لولا الله ما اهتدينا ** ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا ** وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الأولى قد بغوا علينا ** إذا أرادوا فتنة أبينا

ويرفع بهما صوته: (أبينا أبينا)(٢).

فهذه هي الأخلاق التي يجب أن يتحلى بها القائد الناجح.

١٠- عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: «كنت ردف النبي صلى الله عليه وسلم على حمار يقال له عفير»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري:(٤١٠٦).
(٢) تتمة حديث البراء رضي الله عنه.
(٣) أخرجه البخاري: (٢٨٥٦، ٥٩٦٧)، ومسلم:(٣٠).

إن ركوب الحمار بحد ذاته دليل على التواضع الجم من سيد البشر -عليه الصلاة والسلام- ، فكيف، وقد كان ﷺ يردف أصحابه خلفه على الحمار.

وقد ورد أنه أردف غير معاذ رضي الله عنه فقد أردف عبد الله بن عباس، وأسامة بن زيد، وعبد الله بن جعفر وغيرهم من أصحابه رضي الله عنهم وصلى وسلم على نبينا محمد، وسيأتي بعضه قريبًا إن شاء الله تعالى.

وقد جاء عند البخاري في التاريخ الكبير، وأبي يعلى من حديث أنس رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ إذا غزا، أو سافر أردف كل يوم رجلًا من أصحابه»، فالحديث ضعيف لا يصح، وفي الثابت الصحيح غنية عن الضعيف(١).

١١- عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: «كان رسول الله ﷺ يتخلف في المسير، فيزجي الضعيف، ويردف ويدعو لهم»(٢).

إن من صفات القائد الرحيم، والأب الحكيم مراعاة أحوال الضعفاء من أمته، وهكذا كان حاله -عليه الصلاة والسلام- .

---

(١) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير: (٣/ ٤٨٠)، وأبو يعلى (٤٢٣٩)، وفي سنده سعيد بن سليم وثقه ابن حبان، وقال: يخطيء وضعفه غيره من حاشية الأنوار في شمائل النبي المختار مبغوي تعتبق هندي صابر ومحمود سيد علي.

(٢) أخرجه أبو داود (٢٦٣٩) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٩٠١).

١٢- قال أبو الطيب العظيم آبادي[1]: «فيزجي: بضم الياء وسكون الزاي وكسر الجيم أي: يسوق. الشعيف: أي مركبه ليلحقه بالرفاق. قاله القارئ.

ويردف: من الإرداف أي يركب خلفه الضعيف من المشاة، والحديث سكت عنه المنذري» (ا.هـ).

١٣- عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: «ذكر لرسول الله ﷺ صومي فدخل علي، فألقيت له وسادة من أدم حشوها ليف. فجلس على الأرض، وصارت الوسادة بيني وبينه»[2].

لما بلغ النبي ﷺ من عبد الله بن عمر، ما بلغه أخذ نفسه، وشد عزمه، وانطلق إلى عبد الله بن عمر في مسكنه، وقد كان باستطاعته أن يرسل له من يدعوه ويأتيه، ولكن هذا عهده ﷺ زيارة أصحابه، وتفقدهم، ونصحهم، وإرشادهم.

ومن مظاهر تواضعه ﷺ في هذا الحديث جلوسه على الأرض، فلم يطلب ما يفرش له بل جلس على الأرض.

١٤- قال الحافظ ابن حجر -رحمه الله تعالى-:[3] «وفيه تواضع

---

(١) (٧/ ٢٤٢): (من عون المعبود).

(٢) أخرجه البخاري: (١٩٨٠)، ومسلم: (١١٥٩).

(٣) (الفتح: ٤/ ٢٢٦).

الزائر بجلوسه دون ما يفرش له، وأن لا حرج عليه في ذلك إذا كان على سبيل التواضع والإكرام للمزور.

وثالثة أخرى في تواضعه ﷺ من هذا الحديث أنه لم يستأثر بالوسادة لوحده وإنما جعلها بينه وبين عبد الله».

قال ابن حجر[1]: «وفيه بيان ما كان عليه النبي ﷺ من التواضع، وترك الاستئثار على جليسه» (ا.هـ).

وقبوله ﷺ وسادة حشوها من ليف مظهر آخر من مظاهر تواضعه ﷺ في هذا الحديث الشريف والذي أسهب لنا على صغره عددًا من مظاهر تواضعه ﷺ.

١٥- عن قدامة بن عبد الله بن عامر قال: «رأيت رسول الله ﷺ يرمي الجمرة على ناقة شهباء لا ضرب، ولا طرد ولا إليك إليك»[2]

وقف النبي ﷺ في هذا الحديث على الناقة يرمي الجمار راكبًا.

ومن تواضعه أنه لم يبعد الناس عن طريقه، ويأمرهم أن يخلو له الطريق، ويفسحوا له المجال بصفته رسول الله ﷺ ليرمي ثم ينصرف.

ولم يكن منه ذلك لا بقول، ولا بفعل، فلم يستخدم يده في ذلك، أو يحرك شفتيه ﷺ بأمر، أو نهي.

---

(١) (الفتح: ٤/ ٢٣٥).

(٢) أخرجه الترمذي: (٩٠٣)، والنسائي: (٣٠٦١)، وابن ماجه: (٣٠٣٥)، وصححه الألباني: (المشكاة: ٢٦٢٣).

ومن مظاهر تواضعه ﷺ مع أصحابه عيادته لمرضاهم وفي ذلك وردت أحاديث كثيرة ومنها:

١) عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: «عادني رسول الله ﷺ من وجع كان بعيني»[١]

قال الإمام بدر الدين العيني: (شرح أبي داود) (٦/ ٢٠): «واستدل من الحديث أن العيادة تجوز من رمد[٢] العينين، خلافًا لما تزعمه العامة من الناس أن الرمدان لا يزار، والحديث يرد عليهم. وقوله: (من وجع كان بعين) عام يشمل سائر أمراض العين من أنواع الرمد، وغيرها فافهم الحديث، والحديث لم يخرجه غيره من الستة» (ا.هـ).

وما ذكره العيني من كراهة عيادة من به رمد نقله أبو الطيب آبادي عن بعض الأحناف فقال: «وروى عن بعض الأحناف أن العيادة في الرمد، ووجع الضرس خلاف السنة، والحديث يرده، ولا أعلم من أين تيسر لهم الجزم بأنه خلاف السنة[٣] مع أن السنة خلافه نعوذ بالله من شرور أنفسنا» (ا.هـ).

---

(١) رواه أبو داود:(٣١٠٨)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود: (٣٥٧٨).

(٢) الرمد: بفتح الراء والميم ورم حاد يعرض في الطبقة الملتحمة من العين، وهو بياضها الظاهر، وسببه انصباب أحد الأفلاط أو أبخرة تصعد من المعدة إلى الدماغ فغن اندفع إلى المناشم أحدث الزكام، أو إلى العين أحدث الرمد...) (ا.هـ) من عون المعبود:(٨/ ٢٨٠).

(٣) عون المعبود: (٨/ ٢٨١).

وقال الإمام الشوكاني -رحمه الله-: «فيه أن وجع العين من الأمراض التي تشرع لها الزيارة، فيرد بالحديث على من لم يقل باستحباب زيارة من كان مرضه الرمد ونحوه من الأمراض الخفيفة» (ا.هـ)[1].

وعلى كلٍ فالحديث فيه دليل على تواضع النبي ﷺ وأنه كان يعود أصحابه في صغير المرض وكبيره.

٢) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: (جاءني رسول الله ﷺ يعودني ليس براكب بغل ولا برذون)[2].

قال الإمام بدر الدين العيني -رحمه الله-: «وفيه ما يدل على فضيلة عيادة المريض ماشيًا، فإن ركب جاز، والأولى اتباع صاحب الشرع لما فيه من إظهار التواضع، وإدخال السرور في قلب المريض» (ا.هـ)[3].

قلت: مع ما عليه النبي ﷺ من التواضع في عيادته للمريض إلا أنه زاد الأمر تواضعًا بإتيانه المريض ماشيًا، لتكون سلسلة من التواضع تملأ سيرته، وتشرق في مسيرته ﷺ.

٣) عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: «عادني النبي ﷺ عام حجة

---

(١) نيل الأوطار: (٢/ ٤٣٤).

(٢) قلت: حجتهم في ذلك حديث رواه الطيالسي وابن عدي عن أبي هريرة مرفوعًا: (ثلاث لا يعاد صاحبهن الرمد وصاحب الضرس، وصاحب الدمل)، والحديث موضوع كما ذكر ذلك العلامة الألباني في ضعيف الجامع حديث: (٢٥٦٦).

(٣) أخرجه البخاري: (٥٦٦٤).

الوداع من مرض أشفيت منه على الموت»[1].

قال النووي -رحمه الله-: «فيه استحباب عيادة المريض وأنها مستحبة للإمام كاستحبابها لآحاد الناس. ومعنى أشفيت على الموت أي: قاربته وأشرفت عليه...»[2].

٤) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «لما أصيب سعد بن معاذ يوم الخندق رماه في الأكحل، فضرب عليه رسول الله ﷺ خيمة في المسجد ليعوده من قريب»[3].

وفي هذا الحديث تأكيد لأخلاقه ﷺ العالية، وتكريس لتواضعه، وحرصه على عيادة المرضى.

وكذلك فيه حبه ﷺ لأصحابه، وشفقته عليهم، ورحمته بهم، وتفقد أحوالهم.

٥) عن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال: كنا جلوسًا مع رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل من الأنصار، فسلم عليه، ثم أدبر الأنصاري، فقال رسول الله ﷺ: «يا أخا الأنصار كيف أخي سعد بن عبادة؟»، فقال: صالح، فقال رسول الله ﷺ: «من يعوده منكم؟ فقام

---

(١) أخرجه البخاري: (٣٩٣٦)، ومسلم: (١٧٦٩).
(٢) شرح مسلم: (١١/ ٦٦).
(٣) أخرجه البخاري: (٤٦٣)، ومسلم: (١٧٦٩).

وقمنا معه، ونحن بضعة عشر، ما علينا نعال، ولا خفاف، ولا قلانس، ولا قمص، ونمشي في تلك السباخ[1] حتى جئناه، فاستأخر قومه من حوله، حتى دنا رسول الله ﷺ وأصحابه الذين معه»[2]

من أرقى وأرفع مظاهر التواضع أن ترى الإمام القائد يسأل عن رعيته، ويتفقد أحوالهم، وينظر في شئونهم، ويعود مريضهم، وهذا ما ضربه لنا ﷺ في زيارته لسعد بن عبادة رضي الله عنه.

قال الإمام النووي -رحمه الله-: «فيه ما كانت الصحابة رضي الله عنهم من الزهد في الدنيا، والتقلل منها، واطراح فضولها، وعدم الاهتمام بفاخر اللباس ونحوه، وفيه جواز المشي حافيًا، وعيادة الإمام، والعالم المريض مع أصحابه»[3].

٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ دخل على أعرابي يعوده، قال: وكان النبي ﷺ إذا دخل على مريض يعوده قال له: «لا بأس، طهور إن شاء الله تعالى»، قال: قلت: طهور؟ كلا بل حمى تفور أو تثور على شيخ كبير تزيده القبور. فقال النبي ﷺ: «فنعم إذًا».

فهذه هي أخلاقه ﷺ مع أصحابه، عيادة وتلطف، ورحمة وإحسان وتعطف.

---

(١) جمع سبخة: وهي الأرض التي تعلوها الملوحة، ولا تكاد تنبت إلا بعض الشجر.

(٢) رواه مسلم: (٩٢٥).

(٣) شرح مسلم: (٧/ ١٠).

تواضعه ﷺ مع النساء

لقد كرم الإسلام المرأة تكريمًا لن ولم تره في دساتير الأرض، وقوانين الدنيا، ومناهج البشر ولو اجتمعت.

لقد جاء الإسلام ليرفع قدر المرأة بعد ضعة، وليعلي شأنها بعد تسفل، ويجعلها في مكانتها التي تليق بها. فهي درة مصونة، ولؤلؤة مكنونة.

وقد خص النساء بسورة كاملة من كبار سور القرآن، وسماها باسم: (النساء).

وقد جعل الإسلام المرأة صنو الرجل، فعن عائشة رَضِوَاللَّهُعَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: «إنما النساء شقائق الرجال»[1].

وأوصى النبي ﷺ بالمرأة في أعظم المحافل التي وقفها ﷺ. في اليوم العظيم المهيب في يوم عرفة لم ينس أن يبين قدر المرأة ومكانتها، ويوصي الرجال بها، فوقف قائلًا: «اتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهم بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله»[2].

وعلى كلٍ فقد كرم الإسلام المرأة أمًا، وكرمها أختًا، وزوجةً، وعمةً وخالةً وجدةً، وكرمها كيفما كانت، فكرمها لأنها المرأة، بينما كان العرب في الجاهلية قبل الإسلام ينظرون للمرأة على أنها متاع من

---

(١) رواه أبو داود: (٢٣٦)، والترمذي:(١١٣)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود: (٢٣٤).

(٢) أخرجه مسلم: (١٢١٨).

الأمتعة التي يمتلكونها مثلها مثل البهائم يتصرفون فيها كيف شاؤوا.

لا تورث في منهجهم ويقولون: (لا يرثنا إلا من يحمل السيف ويحمي البيضة)

ولم يكن عندهم للمرأة على زوجها أي حق، وليس للطلاق عدد محدود، وليس لتعدد الزوجات عدد معين.

وإذا مات الرجل وله زوجة من غيرها كان الولد الأكبر أحق بزوجة أبيه من غيره، فهو يعتبرها إرثًا كبقية أموال أبيه، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان الرجل إذا مات أبوه أو حموه، فهو أحق بامرأته إن شاء أمسكها، أو يحبسها حتى تفتد بصداقها، أو تموت فيذهب بمالها[1].

وكان العرب يكرهون البنات، ويدفنوهن في التراب أحياء خشية العار كما يزعمون، وقد ذمهم الله لفعلهم هذا فقال: ﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ . بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴾ [التكوير:٨-٩]. وكان هذا حال المرأة في الجاهلية قبل الإسلام عند العرب، وكان حالها مثله عند غير العرب.

فكان اليهود مثلًا: إذا حاضت المرأة لا يؤاكلونها، ولا يشاربونها، ولا يجالسونها، وينصبون لها خيمة في وسط البيت، وكأنها نجاسة وقذارة.

ولما جاء الإسلام رفع الله مكانة المرأة، وأعزها، وأكرمها.

---

(١) أخرجه البخاري:(٤٥٧٩)، وأبو داود: (٢٠٩٠).

يقــول الفــاروق عمــر بــن الخطــاب رضي الله عنه: «كنــا في الجاهليــة لا نعـد النسـاء شـيئًا فلمـا جـاء الإسـلام، وذكـرهن الله رأينـا لهـن بـذلك علينا حقًا»[1].

وفي تعامل النبي صلى الله عليه وسلم مع المرأة مضرب المثل، ومن ذلك تواضعه صلى الله عليه وسلم مع المرأة، وتحننه عليها، ورحمته بها -عليه الصلاة والسلام- ، وهذا ما سنعرج عليه في هذا الفصل.

---

(١) أخرجه البخاري: (٥٨٤٣).

مظاهر تواضعه ﷺ مع النساء

١- عن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها: «أن النبي ﷺ مر بنسوة فسلم عليهن»[1].

السلام من خصال الإسلام، وأخلاقه العظام، يربي في قلوب المسلمين التواضع للآخرين، والمحبة لهم. وكان رسول الله ﷺ ينشر هذا الخلق بين أصحابه، وكان مع هذا متحليًا به أينما حل، أو ارتحل ﷺ مع أصناف الناس، وفئاتهم ومن بينهم النساء.

قال الحليمي: كان ﷺ للعصمة مأمونًا من الفتنة، فمن وثق من نفسه بالسلامة فليسلم، وإلا فالصمت أسلم.

قال ابن حجر: «والمراد بجوازه أن يكون عند أمن الفتنة».

وقال رحمه الله: «وقال ابن بطال عن المهلب: سلام الرجال على النساء، والنساء على الرجال جائز إذا أمنت الفتنة، وفرق المالكية بين الشابة والعجوز سدًا للذريعة، ومنع منه ربيعة مطلقًا»[2].

قال النووي: «إن كن النساء جمعًا سلم عليهن، وإن كانت واحدة

---

(١) رواه الترمذي: (٢٧٠٦)، وأبو داود: (٥٢٠٤)، وابن ماجه: (٣٧٠١)، وصححه الألباني في الصحيحة: (٢١٣٩).

(٢) فتح الباري: (١١/ ٣٤).

سلم عليها النساء وزوجها، وسيدها، ومحرمها سواءً أكانت جميلة، أو غيرها، وأما الأجنبي فإن كانت عجوزًا لا تشتهى استحب السلام عليها، واستحب لها السلام عليه، ومن سلم منهما لزم الآخر رد السلام عليه، وإن كانت شابةً، أو عجوزًا تشتهى لم يسلم عليها الأجنبي، ولم تسلم عليه، ومن سلم منهما لم يستحق جوابًا ويكره رد جوابه، هذا مذهبنا ومذهب الجمهور.

وقال ربيعة: لا يسلم الرجال على النساء، ولا النساء على الرجال وهذا غلط، وقال الكوفيون: لا يسلم الرجال على النساء إذا لم يكن فيهن محرم» (ا.هـ)[1].

وقد ذكر الإمام البخاري في صحيحه حديثين في تسليم الرجال على النساء، وأوردهما ردًا على ما أخرجه عبد الرزاق عن معمر عن يحيى بن أبي كثير: بلغني أنه يكره أن يسلم الرجال على النساء، والنساء على الرجال وهو مقطوع أو معضل[2].

الحديث الأول: عن عبد العزيز بن أبي حازم عن أبيه عن سهل قال: كنا نفرح يوم الجمعة. قلت لسهل: ولمَ؟ قال: كانت لنا عجوز ترسل إلى بُضاعة نخل بالمدينة فتأخذه من أصول السلف، فتطرحه في قدر، وتكركر

---

(١) شرح مسلم: (١٤/ ١٢٣).

(٢) فتح الباري: (١١/ ٣٣).

حبات من شعير، فإذا صلينا الجمعة انصرفنا، ونسلم عليها، فتقدمه إلينا، فنفرح من أجله، وما كنا نقيل، ولا نتغدى إلا بعد الجمعة»[1].

الحديث الثاني: عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «يا عائشة، هذا جبريل يقرأ عليك السلام». قالت: قلت وعليه السلام ورحمة الله، ترى ما لا نرى، تريد رسول الله ﷺ[2].

٢- عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن امرأة جاءت إلى النبي ﷺ فقالت له: «إن لي إليك حاجة، فقال: اجلسي في أي طريق المدنية شئت أجلس إليك».

وفي رواية: «أن امرأة كان في عقلها شيء، فقالت: يا رسول الله إن لي إليك حاجة. فقال: يا أم فلان انظري أي السكك شئت حتى أقضي لك حاجتك، فخلا معها في بعض الطرق حتى فرغت من حاجتها»[3].

لم يكن الرسول ﷺ فارغًا أوبطالًا وحاشاه، فلقد كان عنده من الأعمال الكثيرة، والمشاغل في شأن الدعوى الشيء الكبير. وتصور موقف شخص هذا حاله تأتيه امرأة فيها جنون أو هبل تريد أن تأخذ من وقته الثمين، فيقول لها بكل تواضع ودون أنفة، أو كبر وتأفف.

(١) أخرجه يرقم: (٦٢٤٨).

(٢) أخرجه برقم: (٦٢٤٩).

(٣) رواه مسلم: (٢٣٢٦)، وأبو داود: (٤٨١٨).

(انظري أي سكك المدينة شئتِ أقض لك حاجتك)، وجلس معها حتى فرغت من حاجتها، وانتهت من كلامه فصلى الله وسلم وبارك عليك يا خير خلق الله، ويا أشرف عباد الله، وأعظمهم تواضعًا، وأحسنهم خلقًا.

قال الإمام النووي في شرحه لهذا الحديث: «بيان تواضعه ﷺ بوقوفه مع المرأة الضعيفة.

قوله: (خلا معها في بعض الطرق) أي: وقف معها في طريق مسلوك، ليقضي حاجتها، ويفتيها في الخلوة، ولم يكن ذلك من الخلوة الأجنبية، فإن هذا كان في ممر الناس، ومشاهدتهم إياه وإياها، لكن لا يسمعون كلامها، لأن مسألتها مما لا يظهره، والله أعلم[1].

٣- عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «إن كانت الوليدة من ولائد المدينة تجيء، فتأخذ بيد رسول الله ﷺ. فما ينزع يده من يدها حتى تذهب به حيث شاءت»[2]

قال الحافظ ابن حجر[3]: والمقصود من الأخذ باليد لازمة، وهو الرفق والانقياد، وقد اشتمل على أنواع من المبالغة في التواضع لذكره

---

(١) شرح مسلم: (١٥/ ٦٨).

(٢) أخرجه البخاري: (٦٠٧٤).

(٣) فتح الباري: (١٠/ ٤٩٠).

المرأة دون الرجل، والأمة دون الحرة، وحيث عمم بلفظ الإماء أي أمة كانت، وبقوله: (حيث شاءت) أي: من الأمكنة. والتعبير بالأخذ باليد إشارة إلى غاية التصرف حتى لو كانت حاجتها خارج المدينة، والتمست منه مساعدتها في تلك الحاجة لساعد على ذلك، وهذا دال على مزيد تواضعه وبراءته ﷺ من جميع أنواع الكبر» (ا.هـ).

٤- عن ابن أبي أوفى رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يكثر الذكر، ويقل اللغو، ويطيل الصلاة، ويقصر الخطبة، وكان لا يأنف، ولا يستكبر أن يمشي مع الأرملة، والمسكين فيقضي له حاجته»(١).

إن القيام على الأرملة، والمسكين من أعظم القربات، وأجل الطاعات التي حث عليها النبي ﷺ وذكر بها أصحابه، وأتباعه، ومحبيه.

وكان في أفعاله ﷺ تجسيدًا لذلك كما في هذا الحديث، وهو تأكيد لما قبله من صور التواضع، وقربه ﷺ من الضعفاء، والمساكين، والأرامل، والمحتاجين.

وقد تقدم باب كامل في تواضعه ﷺ مع نسائه وأهله، وهو مما يضاف إلى تواضعه ﷺ مع النساء.

---

(١) أخرجه النسائي: (١٤١٤)، وابن حبان: (٦٤٢٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع: (٥٠٠٥).

تواضعه ﷺ مع الأطفال

إن الأولاد هم زينة الحياة الدنيا، وبهرجها.

قال تعالى: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا﴾ [الكهف: ٤٦].

وجعلهم الله تعالى قرة عين للآباء والأمهات إذا أصلحهم الله، ولذلك وصف الله الصالحين بقوله في دعائهم: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

وكان الصالحون يقولون: لا تحلو الحياة إلا بالولد.

وقد جعل النبي ﷺ من الأعمال الصالحة التي تخلف الرجل الصالح (ولد صالح يدعو له).[1]

ومما تمناه الصالحون من الأنبياء، والمرسلين ما حكاه الله عن إبراهيم -عليه الصلاة والتسليم-: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات١٠٠]، فكان الجواب: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ﴾ [الصافات:١٠١].

وفي خبر زكريا -عليه الصلاة والسلام-: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩]. أي لا تتركني وحيدًا، لا ولد، ولا أبناء، فكانت النتيجة: ﴿فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران:٣٩]، فمن حلاوة الدنيا،

---

(١) رواه مسلم: (١٦٣٢) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ.

ومتاعها أن يرزق الإنسان بالأطفال، ويوفق الله الآباء لتربيتهم التربية الصالحة التي تعود بالنفع على الأب والأم، وعلى الأسرة، والمجتمع.

ولقد كان في حياته ﷺ للأطفال وقت، وحال ينبع منه الرفق، والتواضع النبوي الجليل رغم أن أمور الأمة تدور على كتفه ﷺ لكنه ببشريته، وأخلاقه التي زكاه الله بها لم ينس هذا الصنف من الناس ليجعل لهم وقتًا يلاطفهم، ويمازحهم فيه، وهذا ما سنعيش تفاصيله، ونغور في معانيه في هذه الأسطر:

١) عن عبد الله بن جعفر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كان النبي ﷺ إذا جاء من سفر تلقي بصبيان أهل بيته، وأنه جاء من سفر فسبق بي إليه، فحملني إليه، فحملني بين يديه، ثم جيء بأحد ابني فاطمة، فأردفه خلفه إما حسن، وإما حسين، فدخلنا المدينة ثلاثة على دابة»[1].

وفي هذا الحديث ملاطفة النبي ﷺ للصبيان، وفي هذا من التواضع ما لا يخفى.

وزد في تواضعه ﷺ مع الصبيان أنه يردفهم خلفه، ويركبهم على بعيره.

وفي الحديث سنة مستحبة، وهي أن يتلقى الصبيان المسافر[2].

---

(١) أخرجه مسلم: (٢٤٢٨)، وأبو داود: (٢٥٦٦).

(٢) شرح مسلم: (١٥/ ١٦٣) للنووي.

وبوب عليه أبو داود فقال: (باب في ركوب ثلاثة على دابة).

قال في عون المعبود[1]: «إذا كان ذلك لا يضر بها، انتهى من كلام المنذري» (ا.هـ).

٢) عن السائب بن يزيد رضي الله عنه قال: ذهبنا نتلقى رسول الله ﷺ مع الصبيان إلى ثنية الوداع[2] وفي رواية: «مقدمه من غزوة تبوك»[3]

وفي هذا الحديث تأكيد ما ذكره النووي في الذي قبله، وهي سنة استحباب أن يتلقى الصبيان المسافر.

وفيه بيان ما كان عليه الصبيان من حبهم الشديد لرسول الله ﷺ فيخرجون بكل فرح، وسعادة لاستقباله ﷺ.

وما ذاك إلا لكريم أخلاقه، وعظيم تواضعه معهم ولو كان ﷺ من المتكبرين المتعجرفين -وحاشاه- لما رأيت هذه الحفاوة، ولما سمعت بهذا الاستقبال من أولئك الصبيان.

---

(١) (٧/ ١١٨٩).

(٢) أخرجه البخاري: (٣٠٨٣).

(٣) قال ابن حجر الفتح: (٨/ ١٢٨): أنكر الداودي هذا، وتبعه ابن القيم وقال: ثنية الوداع من جهة مكة لا من جهة تبوك بل هي مقابلها كالمشرق والمغرب، قال: إلا أن يكون هناك ثنية أخرى في تلك الجهة، والثنية ما ارتفع من الأرض. وقيل الطريق في الجبل، قلت: لا يمنع كونها من جهة الحجاز أن يكون خروج المسافر إلى الشام من جهتها، وهذا واضح كما في دخول مكة من ثنية، والخروج منها من أخرى وينتهي كلاهما إلى طريق واحد) ا.هـ.

٣) عن عبد الله بن أبي مليكة قال عبد الله بن جعفر لابن الزبير: «أتذكر إذ تلقينا رسول ﷺ أنا، وأنت، وابن عباس؟ قال: نعم، فحملنا، وتركك»[١].

ولقد كان ﷺ يوم يتلقاه الصبيان ينبسط إليهم، ويهش معهم، ويحملهم ﷺ، وما ذاك إلا من تواضعه -عليه الصلاة والسلام-.

٤) عن جابر بن جعفر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «أردفني رسول الله ﷺ ذات يوم خلفه فأسر إليّ حديثًا لا أحدث به أحدًا من الناس»[٢].

عبد الله بن جعفر صحابي فاضل ممن ولد في الحبشة، وأبوه جعفر بن أبي طالب القرشي الهاشمي.

وكان عبد الله معدودًا في صغار الصحابة، استشهد أبوه يوم مؤتة، فكفله النبي ﷺ ونشأ في حجره[٣].

وإرداف النبي ﷺ لعبد الله بن جعفر، وإسراره له بالحديث دليل على فضيلته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع عدم إغفال الشاهد من هذا الحديث، وهو تواضعه ﷺ مع الصبي عبد الله بإردافه خلفه.

٥) عن عبد الله بن جعفر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي ﷺ أتاهم بعد ما أخبرهم

---

(١) أخرجه البخاري: (٣٠٨٢)، ومسلم: (٢٤٢٧).

(٢) أخرجه مسلم: (٢٤٢٩)، وأبو داود: (٢٥٤٩)، وابن ماجه: (٣٤٠).

(٣) سير أعلام النبلاء: (٣/ ٤٥٦).

بقتل جعفر بعد ثالثة، فقال: «لا تبكوا أخي بعد اليوم»، ثم قال: «ائتوني ببني أخي»، فجيء بنا كأننا أفراخ فقال: «ادعوا لي الحلاق»، فأمره، فحلق رؤوسنا، ثم قال: أما محمد، فشبه عمنا أبي طالب، وأما عبدالله، فشبه خلقي وخلقي ثم أخذ بيدي فأشالها، ثم قال: «اللهم اخلف جعفر في أهله، وبارك لعبد الله في صفقته»: قال: فجاءت أمنا، فذكرت يتمنا، فقال: «العيلة تخافين عليهم، وأنا وليهم في الدنيا والآخرة»[1].

وهذا الحديث المبارك قد جمع في طياته عددًا من مظاهر تواضعه ﷺ.

فمن مجيئه إلى بيت جعفر، ووصيته لهم، وإرشادهم إلى ما ينبغي، ثم بعدها اهتمامه بالأيتام من أولاد جعفر، ومن ثم دعاؤه لهم، ويختم ذلك ﷺ بأن يبشر أمهم ألا تخاف عليهم، ولا تحزن لشأنهم فهو ﷺ وليهم، وكفيلهم.

هو الأب إن ذهب أبوهم، والوالد إن مات والدهم، والرحيم الحنون بهم، والرفيق بحالهم.

فماذا تريد بعد ذلك، وكيف تقلق، ورسول الله المبعوث رحمة للعالمين هو من يخاطبها بذلك الضمان، فهل تحمل همًا بعدها.

---

(١) أخرجه أحمد: (١/ ٢٠٤)، وأبو داود: (٤١٩٢). وقال الأرناؤوط (حاشية السير: ٣/ ٤٥٨) في إسناده: وهو قوي.

٦) عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه مر على صبيان، فسلم عليهم، ثم حدث: «أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مر على صبيان، فسلم عليهم»(١).

٧) وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يزور الأنصار، ويسلم على صبيانهم، ويمسح رؤوسهم»(٢).

٨) وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «مر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنا مع الصبيان، فسلم علينا ثم أخذ بيدي، فأرسلني برسالة»(٣).

السلام خير من الكلام، وأفضل ما يقدمه الأنام، بين يدي الملك العلام عند الوقوف يوم الزحام، وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سباقًا للخير، في أول ميادينه، ولم يخص بالسلام قومًا دون آخرين، ولا فئة من غير البقية، وإنما كان جوادًا به على الجميع.

ووصل به جوده بالسلام إلى الصبية الصغار، والغلمان الأطفال.

فلم يمنعه طول قامته، ولا سبق فضله أن يسلم عليهم، ويمسح رؤوسهم.

٩) عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خرج يومًا غاضبًا، فتلقاه ذراري الأنصار، وخدمهم، قال: ما هم بوجوده الأنصار يومئذ، فقال:

---

(١) أخرجه البغوي في شرح السنة: (٣٣٠٦)، وهو في الصحيحة للألباني: (٣/ ٢٧٣).

(٢) أخرجه مسلم: (٢٤٨٢)، وأبو داود: (٥٢٠٣).

«والذي نفسي بيده إني لأحبكم» مرتين، أو ثلاثًا، ثم قال: «إن الأنصار قد قضوا الذي عليهم، وبقي ما عليكم، فأحسنوا إلى محسنهم، وتجاوزا عن مسيئهم»(١).

وهذا مظهر آخر من مظاهر التواضع المحمدي، الذي عجزت الدنيا بأسرها أن تجد مثله، والتاريخ بطولة أن يسطر عد له.

إمام المسلمين، وقائد الأمة، وخليفتها ينظر للذراري، فتفيض مشاعره، وتتحرك أحاسيسه، وينطلق لسانه بكل الحب والمودة لأطفال الأنصار فيعلنها لهم: (إني لأحبكم)، وليس هذا فحسب بل يقسم ﷺ وهو الصادق المصدوق: (فيقول والذي نفسي بيده إني لأحبكم).

فو الله، وبالله، وتالله إننا لنحبك يا رسول الله، صلى وسلم عليك الله.

١٠) عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ أرحم الناس بالعيال، وقال: كان إبراهيم مسترضعًا له في عوالي المدينة فكان ينطلق، ونحن معه، فيدخل البيت، وإنه ليدخن، وكان ظئره(٢) قينًا(٣)، فيأخذه، فيقبله، ثم يرجع.

---

(١) أخرجه أحمد: (٣/ ٢٠٥)، والنسائي في الكبرى: (٥/ ٨٧)، وابن حبان: (٧٢٦٦).

(٢) الظئر: هي المرضعة ولد غيرها، وزوجها ظئر لذلك الرضيع، فلفظة ظئر تقع على الأنثى والذكر.

(٣) يعني حدادًا، ويطلع على كل صانع، يقال: قان الشيء إذا أصلحه.

قال عمر: فلما توفي إبراهيم قال رسول الله ﷺ: «إن إبراهيم ابني، وإنه مات في الثدي، وإن له لظئرين تكملان رضاعه في الجنة»[1].

بوب الإمام النووي -رحمه الله- على هذا الحديث وغيره فقال (باب رحمته ﷺ بالصبيان، والعيال، وتواضعه وفضل ذلك) انظر: كتاب الفضائل من صحيح مسلم.

وفي هذا الحديث حبه ﷺ للأطفال ويتجلى ذلك في زيارته لولده، في مكان رضاعته، فحين يلتقيه ما يملك الأب الرحيم، والنبي الرؤوف إلا أن يشمه، ويقبله، ويحتضنه، ليهدأ من شوقه لولده، وحبه لإبراهيم، ومن فرط شفقته ﷺ بالولد أنه قال:(إن إبراهيم ابني قد مات في الثدي) أي: في حال رضاعه لم يكمل مدة الرضاعة. قيل وهو ابن ستة عشر شهرًا.

فكان هذا القول حزنًا، وشفقةً، ورحمةً منه ﷺ.

١١) عن عائشة رضي الله عنها قالت: (قدم ناس من الأعراب على رسول الله ﷺ فقالوا: أتقبلون صبيانكم؟ فقال: نعم، قالوا: لكنا، والله ما نقبل. فقال رسول الله: «وأملك إن كان نزع الله منكم الرحمة»، وقال ابن نمير: «من قلبك الرحمة»[2].

---

(١) أخرجه مسلم: (٢٣١٦).

(٢) أخرجه البخاري: (٥٩٩٨)، ومسلم، (٢٣١٧).

١٢) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن الأقرع بن حابس أبصر النبي ﷺ يقبل الحسن فقال: إن لي عشرة من الولد ما قبلت واحدًا منهم، فقال رسول الله ﷺ: «إنه لا يُرحم من لا يَرحم»(١).

إن من الملاحظ عن بعض المسلمين أنه لا يُعرف في قلبه رحمة للصبيان، وميلًا جهتهم، فأنكر النبي ﷺ على من كان من هذا الصنف ممن لا يُقبل الأولاد، وعدم تقبيله للأطفال دليل على عدم رحمته بهم، وأين الرحمة التي يجب أن تكون في قلب الأب لأولاده، وكيف يستحق أن يكون أبًا من لا تعرف الرحمة إلى قلبه منفذًا.

إن الأسرة التي يربو أطفالها، وينشأ صبيانها على الغلظة، والشدة والقسوة، والعنف، لا تعيش معاني العطف، والحنان، ولا الحب، والرحمة، هذه الأسرة قطعًا تعيش في تفكك، وفرقة، وعداء لا يطيق أفرادها بعضهم البعض.

وكم من ولد وفتاة يفتقد كلمات العطف، وعبارات الحب من أبيه، أو أمه لتشبع عاطفته المتهيجة.

فحين يسمعها خارج البيت من ذئاب البشر، ولصوص الأعراض ينسال أمامها، ويذوب لعباراتها.

---

(١) أخرجه البخاري: (٥٩٩٧)، ومسلم: (٢٣١٨).

ليعود كل من الفتى، والفتاة على البيت بما يجر عليه الويل والدمار، والخزي، والعار.

وحينها يتساءل أولياء الأسرة من أين هذا؟: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران:١٦٥].

١٣) عن أم خالد بنت خالد بن سعيد قالت: أتيت رسول الله ﷺ مع أبي، وعليّ قميص أصفر، فقال رسول الله ﷺ: «سنة سنة». قال عبد الله: وهي بالحبشة: حسنة. قالت: فذهبت ألعب بخاتم النبوة وجرني أبي، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «دعها»، ثم قال: «أبلي وأخلقي، ثم أبلي وأخلقي، ثم أبلي وأخلقي» قال عبد الله فبقي حتى ذكر، يعني من بقائها[1].

والمراد من سياق هذا الحديث سماحه ﷺ لأم خالد حين كانت صبية أن تلعب معه، ثم جعل يمازحها ﷺ.

وقد بوب البخاري على هذا الحديث فقال: (باب من ترك صبية غيره حتى تلعب به، أو قبلها، أو مازحها).

١٤) عن أبي قتادة الأنصاري رضي الله عنه «أن رسول الله ﷺ كان يصلي وهو حامل أمامة بنت زينب بنت رسول الله ﷺ ولأبي العاص بن ربيعة بن عبد شمس، فإذا سجد وضعهما، وإذا قام حملها»[2].

---

(١) أخرجه البخاري: (٥٩٩٣).

(٢) أخرجه البخاري:(٥١٦)، ومسلم: (٥٤٣).

وهذا من حسن تعامله ﷺ، ورحمته بولد الولد وصبره على ذلك، وما يجتمعن في امرئ إلا لتواضع قلبه، وانخفاض جناحه.

قال الحافظ ابن حجر -رحمه الله- [1]: «وبهذا تظهر مناسبة الحديث للترجمة، وهو رحمة الولد، وولد الولد، ومن شفقته ﷺ، ورحمته لأمامة أنه كان إذا ركع، أو سجد يخشى عليها أن تسقط، فيضعها بالأرض، وكأنها كانت لتعلقها به لا تصبر في الأرض، فتجزع من مفارقته. فيحتاج أن يحملها إذا قام، واستنبط منه بعضهم عظم قدر رحمة الوالد. لأنه تعارض حينئذ المحافظة على المبالغة في الخشوع، والمحافظة على مراعاة خاطر الوالد، فقدم الثاني، ويحتمل أن يكون ﷺ إنما فعل ذلك لبيان الجواز» (ا.هـ).

قال النووي -رحمه الله-: [2]«وفيه تواضعه مع الصبيان، وسائر الضعفة، ورحمتهم، وملاطفتهم» (ا.هـ).

١٥) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن رسول الله ﷺ: «كان يؤتى بالصبيان، فيبرك عليهم، ويحنكهم، فأُتي بصبي، فبال عليه، فدعا بماء، فأتبعه بوله، ولم يغسله»[3].

---

(١) فتح الباري: (١٠/ ٤٢٩).

(٢) شرح مسلم: (٥/ ٢٧).

(٣) أخرجه البخاري: (٢٢٢)، ومسلم: (٢٨٦).

١٦) عن أم قيس بنت محصن: «أنها أتت رسول الله ﷺ بابن لها لم يأكل الطعام، فوضعته في حجره فبال، قالت: (فلم يزد على أن نضح بالماء)»[1]

قال الإمام النووي -رحمه الله- [2]: «وفيه الندب إلى حسن المعاشرة، واللين، والتواضع، والرفق بالصغار وغيرهم» (ا.هـ).

إن المسلم وهو يقرأ هذه الأحاديث، فيرى صبية يتبولون على ثوبه، وبطنه ﷺ، فلم يزد أن دعا بماء لينضح. يتسأل: أين نحن من هذه الأخلاق النبوية، أين كثير من الآباء من هذا الأدب الكريم، تراه مفقودًا عند كثير إلا من رحم الله.

بل ونسمع عكس هذا تمامًا، إليك بعض الأمثلة على ذلك:

١- أب كان نائمًا فصرخ صبيه باكيًا، فقام من نومه آخذاً حديدة كانت بيده، فرمى به الصبي في أنفه، وإلى اليوم ما زال المسكين رغم كبر سنه يعاني من أثر سفه ذاك الأب، الذي سببت له حماقة أبيه انحرافًا في أنفه يصعب عليه التنفس، ويتعب في حياته منه.

٢- يحدثني أحد الآباء عن سفر ولده إلى الهند، فسألته عن سبب سفره؟ فأجابني متالمًا عن موقف ارتكبه في حق هذا الولد في صغره،

(١) أخرجه البخاري: (٢٢٣)، ومسلم: (٢٨٧).

(٢) سرح مسلم: (٣/ ١٥٠).

حيث كان الأب لا يتحمل ولده، ولا يطيق تصرفاته، فكان إذا ضربه يضربه ضربًا أكثر من مبرح، يأخذه ويرمي به من جدار إلى جدار، ومن غرفة إلى غرفة، ولك أن تتصور بشاعة هذا العمل مع ذلك الولد، أي صحة تبقى له، وأي جسد سليم يدوم معه، أصلح الله حالنا جميعًا.

٣- وأب يضرب ولده ضرب البهائم فيؤدي به إلى فقدان بصره، فماذا ينفع الندم بعد ذلك.

٤- وآخر لمجرد أنه لعب بأثاث البيت، نزى عليه أبوه يضربه كأنه مصارع في حلبة، فشلت يداه وقدماه من آثار بطولة والده المصارع المغوار.

وكم في الواقع من مثل هذه الأخبار، وربما أكثر بشاعة مما ذكرناه.

وما ذاك إلا لأننا فقدنا أخلاق النبي ﷺ في معاملة الصبيان، والأطفال.

١٧) عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ أحسن الناس خلقًا، وكان لي أخ يقال له أبو عمير، قال أحسبه فطيمًا، وكان إذا جاء قال: «يا أبا عمير ما فعل النغير؟» نغر كان يلعب به[1]. و النغير طائر صغير يشبه العصفور[2].

---

(١) أخرجه البخاري: (٦٢٠٣)، ومسلم: (٢١٥٠).

(٢) فتح الباري: (١٠/ ٥٨٣).

فكان النبي ﷺ إذا واجه الصغير أبا عمير مازحه ولاطفه فقال: «ما فعل النغير»، يسأله عن طيره وعصفوره.

قال الحافظ ابن حجر -رحمه الله-:[1] «وفيه جواز الممازحة، وتكرير المزح، وأنها إباحة سنة لا رخصة، وأن ممازحة الصبي الذي لم يميز جائزة، وتكرير زيارة الممزوح معه، وفيه ترك التكبر، والترفع» (ا.هـ).

وقال الإمام النووي -رحمه الله- [2]: «وفي هذا الحديث فوائد كثيرة جدًا منها: ملاطفة الصبيان وتأنيسهم، وبيان ما كان عليه النبي ﷺ من حسن الخلق، وكرم الشمائل، والتواضع» (ا.هـ).

وقد ذكر الحافظ ابن حجر عند شرحه لهذا الحديث من صحيح البخاري أكثر من ستين فائدة.

١٨) عن أسماء بنت أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: جاء عبد الله ابن الزبير وهو ابن سبع سنين، أو ثمان ليبايع رسول الله ﷺ، وأمره بذلك الزبير. فتبسم رسول الله ﷺ حين رآه مقبلًا إليه ثم بايعه[3].

وفي تبسم النبي ﷺ لعبد الله بن الزبير بيان تواضعه، وطيب أخلاقه ﷺ.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) شرح مسلم: (١٤/ ١٠٦).

(٣) أخرجه البخاري: (٣٩٠٩)، ومسلم: (٢١٤٦).

قال الإمام النووي -رحمه الله-:[1] «هذه بيعة تبريك وتشريف لا بيعة تكليف» (ا.هـ).

١٩) عن سهل بن سعد قال: أُتي بالمنذر بن أبي أسيد إلى رسول الله ﷺ حين وُلد، فوضعه النبي ﷺ على فخذه وأبو أسيد جالس، فلهى النبي ﷺ بشيءٍ بين يديه، فأمر أبو أسيد بابنه، فاحتمل من على فخذ رسول الله ﷺ فأقلبوه، فاستفاق رسول الله فقال: «أين الصبي؟»، فقال أبو أسيد: أقلبناه يا رسول الله فقال: «ما اسمه؟» قال: فلان يا رسول الله، قال: «لا ولكن اسمه المنذر» فسماه يومئذٍ المنذر[2].

ومن تواضعه ﷺ في هذا الحديث: وضعه الصبي على فخذه.

٢٠) عن يوسف بن عبد الله بن سلام قال: «سماني رسول الله ﷺ يوسف، وأقعدني في حجره، ومسح على رأسي»[3].

٢١) عن أبي بريدة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يخطبنا إذ جاء الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يمشيان، ويعثران فنزل رسول الله ﷺ من المنبر فحملهما، ووضعهما بين يديه ثم قال: صدق الله: ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [التغابن:١٥].

---

(١) شرح مسلم: (١٤/ ١٠٥).

(٢) أخرجه البخاري: (٦١٩)، ومسلم:(٢١٤٩).

(٣) رواه أحمد: (٤/ ٢٣٥)، والحميدي: (٨٦٩).

نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران، فلم أصبر حتى قطعتُ حديثي ورفعتهما)[1].

من مظاهر تواضعه ﷺ في هذا الحديث ما كان من نزوله لهذين السبطين رضي الله عنهما، وحملهما، فلكمال ما وضع الله تعالى فيه من الرحمة، والرأفة، والرقة في قلبه لم يصبر حتى نزل من على المنبر لحملهما، وضمهما بين يديه.

٢٢) عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: رأيت رسول الله ﷺ واضعًا الحسن بن علي على عاتقه وهو يقول: «اللهم إني أحبه فأحبه»[2].

قال القاضي عياض: «فيه ما كان -عليه الصلاة والسلام- من حسن الخلق، والعشرة، والتواضع، وحبه للحسن، وحمله له، ورحمته للصبيان، والرجال» (ا.هـ).[3]

٢٣) عن شداد بن العماد رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ في إحدى صلاتي العشي وهو حامل حسنًا، أو حسينًا، فتقدم النبي ﷺ، فوضعه، ثم كبر للصلاة، فصلى فسجد بين ظهراني صلاته سجدة أطالها، قال: فرفعت رأسي من بين الناس، فإذا الصبي على ظهر

---

(١) أخرجه الترمذي: (٣٧٧٤)، وأبو داود: (١١١١). وابن ماجه: (٣٦٠٠)، والنسائي: (١٤١٣)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود: (١٠١٦).

(٢) أخرجه البخاري: (٣٧٤٩)، ومسلم: (٢٤٢٢).

(٣) إكمال المعلم شرح صحيح مسلم

رسول الله ﷺ وهو ساجد، فرجعت إلى سجودي، فلما قضى رسول الله ﷺ الصلاة قال الناس: يا رسول الله إنك سجدت بين ظهراني صلاتك هذه سجدة أطلتها، حتى ظننا أنه قد حدث أمر، أو أنه يوحى إليك. قال: «كل ذلك لم يكن، ولكن ابني ارتحلني، فكرهت أن أعجله حتى يقضي حاجته»(١).

٢٤) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: كان ﷺ يصلي، فإذا سجد وثب الحسن، والحسين على ظهره، فإذا منعوهما، أشار إليهم أن دعوهما، فلما قضى الصلاة، وضعهما في حجره وقال: «من أحبني فليحب هذين»(٢).

وتواضعه ﷺ في هذين الحديثين أظهر من أن يذكر، وأوضح من أن يسطر، فصلى وسلم عليك الله يا خير من وطئ الثرى، وأكرم من صلى وصام، وأجل من عرفته البشرية، وأعظمهم تواضعًا، وأكثرهم رحمة وحنانا -صلى الله عليه آله وأصحابه وسلم تسليمًا كثيرًا-.

٢٥) عن أبي السمح قال: كنت أخدم رسول الله ﷺ وكان إذا أراد أن يغتسل قال: «ناولني أدواتي»، قال: فأناوله وأستره فأتى بحسن، أو حسين،

---

(١) أخرجه النسائي: (١/ ١٧١)، وأحمد (٣/ ٤٩٣)، والحاكم: (٣/ ١٦٤)، وانظر أصل صفة صلاة النبي للألباني: (٢/ ٧٧٢).

(٢) أخرجه ابن خزيمة: (٨٨٧) بإسناد حسن، انظر أصل الصفة: (٢/ ٧٧٣).

فبال على صدره، فجئت لأغسله فقال: «يغسل من بول الجارية، ويرش من بول الغلام»(١).

[أخي الكريم] تخيل نفسك اغتسلت، وتنظفت وبينما أنت مرتاح البال، منشرح الصدر بعد غسلتك، فإذا بالصبي يبول على صدرك، فماذا سيكون ردك، وكيف ستتصرف في مثل هذا الموقف؟.

ها هو رسول الله ﷺ يعلمنا الحلم، والصبر، والتواضع، وكبد النفس في مثل هذه الحاثة، فخذ منه قبسًا، واستقِ منه نورًا ﷺ.

٢٦) عن محمود بن الربيع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «عقلت من النبي ﷺ مجة مجها في وجهي، وأنا ابن خمس سنين من دلو»(٢). المج: هو إرسال الماء من الفم، وفعله النبي ﷺ مع محمود مداعبة له(٣)، فهذه أخلاقه ﷺ، وتواضعه مع الأطفال رغم أن أمور الأمة تدار على كتفه، ولا يبلغ أحدنا عشر معشار أعماله ﷺ.

ومع ذلك وجد وقتًا يأخذ فيه الأطفال، ويقبلهم، ويحملهم، ويمازحهم.

كان يفعل هذا ﷺ في الوقت الذي لم تعرف جبابرة العرب

---

(١) رواه النسائي:(٣٠٤)، وأبو داود: (٣٧٦)، وابن ماجه: (٥٢٦).

(٢) أخرجه البخاري: (٧٧).

(٣) فتح الباري لابن حجر العسقلاني: (١/ ١٧٢).

استصحاب الأطفال في مجالسهم، وكانوا يأنفون عن حمل الجواري على أكتافهم، بل كانوا يقتلون الجواري: ﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ. بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴾ [التكوير٨-٩].

وما زالت بعض العادات السيئة متوارثة من أولئك الجاهليين في صفوف بعض قساة القلوب، وجبابرة الأفئدة. فيرى أن من أحقيته، وشخصيته، وعلوه، وسموه ألا يدنو إلى طفل في الشارع، فيقبله، ويمسح رأسه.

ويقول: مالي ولأطفال الناس، وحضرتي تتنزل إلى مطاردة الأطفال في السكك لأمسح رؤوسهم، وأقبلهم، لكن المصطفى ﷺ كان يدنو منهم، ويقبلهم، ويدعو لهم، حين يلقاهم، ويعلمهم بحبه لهم.

وإذا رحمت فأنت أم أو أب ** هذان في الدنيا هما الرحماء
فإذا أخذت العهد أو أعطيته ** فجميع عهدك ذمة ووفاء
فإذا سخوت بلغت بالجود المدى ** وفعلت ما لا تفعل الأنواء
وإذا غضبت فإنما هي غضبة ** في الحق لا ضعن ولا بغضاء
وإذا سعيت إلى العدا فغضنفر ** وإذا غضبت فإنك النكباء

تواضعه ﷺ مع الخدم والمماليك

لقد أعطت الشريعة الإسلامية كل ذي حق حقه، ووضعت الأمور في نصابها، ووزنتها بميزان العدل، والإنصاف، والله -عز وجل- يقول في كتابه الكريم: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف:٣٢].

فتسخير العباد بعضهم لبعض من أعظم منن الله تعالى على خلقه.

ولقد أوصت الشريعة الغراء، وملة الحنفاء من كان من الأولياء أن يحسن إلى الخدم والعبيد الأرقاء.

ومن الحقوق التي ينبغي إعطاؤهم إياها:

١- **التلطف معهم، واحترام قدرهم، وأنهم بشر**، ولولا حاجتهم إلى المال واكتسابه، لما هان عليهم فراق العيال، والسفر بالأميال.

٢- **إطعامهم:**

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ قال: «إذا أتى أحدكم خادمه بطعامه، فإن لم يجلسه معه، فليناوله لقمة، أو لقمتين، أو أكلة، أو أكلتين، فإنه ولي حره ودخانه»[1]

---

(١) أخرجه البخاري: (٢٥٥٧)، وأحمد: (٢/ ٤٨٣).

وعن المقدام بن معدي كرب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ما أطعمت نفسك فهولك صدقة، وما أطعمت ولدك فهولك صدقة، وما أطعمت زوجك فهو لك صدقة، وما أطعمت خادمك فهولك صدقة»[1].

٣- عدم التأخر في إعطائه أجره:

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ، قال: «ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حرًا فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيرًا، فاستوفى منه، ولم يعطِه أجره»[2]، فاتقوا الله يا أهل البيوت، واتقوا الله يا أصحاب الشركات والمؤسسات واعطوا الأجراء أجرهم في أوقاتها، وإلا فأعدو لمخاصمة النبي ﷺ جوابًا، وللجواب جلبابًا.

٤- عدم ضربهم، والدعاء عليهم، أو لعنهم:

عن أبي مسعود رضي الله عنه قال: كنت أضرب غلامًا لي، فسمعت من خلفي صوتًا: «اعلم أبا مسعود، لله أقدر عليك منك عليه»، فالتفت فإذا هو رسول الله ﷺ.

قلت يا رسول الله: فهو حر لوجه الله، فقال: «أما لو لم تفعل لمستك النار، أو للفحتك النار»[3].

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد: (٨٢)، وأحمد في مسنده: (١٧٨١)، وصححه الألباني في الصحيحة: (٤٥٢).

(٢) أخرجه البخاري: (٢٢٢٧).

(٣) أخرجه مسلم: (١٦٥٤٩).

ولم يكن الأمر في الشريعة مقتصرًا على مس البدن فحسب، بل مُنع اللسان من شتم، وسب للخدم. والدعاء عليهم، فعن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لا تدعوا على أنفسكم، ولا تدعوا على أولادكم، ولا تدعوا على خدمكم، ولا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله ساحة يسأل فيها عطاء، فيستجاب لكم»(١).

وسمعت أم الدرداء عبد الملك بن مروان يلعن خادمه، فقالت أم الدرداء: سمعتك الليلة لعنت خادمك حين دعوته، فقد سمعت أبا الدرداء يقول: قال رسول الله ﷺ: «لا يكون اللعانون شفعاء، ولا شهداء يوم القيامة»(٢).

(١) أخرجه أبو داود: (١٥٣٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع: (٧٢٦٧).
(٢) أخرجه مسلم:(٢٥٩٨).

خدم النبي ﷺ، وعبيده، وإماؤه

لقد كان للنبي ﷺ عدد من العبيد والإماء، ومن الخدم الذين كانوا يسعون في خدمته ويتشرفون في منفعته، والعمل على راحته ﷺ، وله -عليه الصلاة والسلام- أنصع، وأروع طرق التعامل، والإحسان إليهم، والتواضع معهم.

وقبل أن أذكر هذه المواقف أحببت إتمامًا للفائدة أن أقدم بين يديها تسمية هؤلاء، وذكرهم بأشخاصهم.

عبيده ﷺ ومواليه من الرجال:

منهم أسامة بن زيد بن حارثة، وزيد بن حارثة بن شراحيل، ومنهم أسلم أبو رافع القبطي، ومنهم أيمن بن عبيد بن زيد الحبشي، وكان على مطهرة النبي ﷺ.

ومنهم ثوبان اشتراه رسول الله ﷺ فأعتقه، ومنهم حنين كان يخدم النبي ﷺ ويوضئه.

ومنهم رويفع مولاه ﷺ.

ومنهم زيد أبو يسار، ومنهم سفينة أبو عبد الرحمن واسمه معمران كان مولى لأم سلمة، فأعتقته واشترطت عليه أن يخدم رسول الله ﷺ

حتى يموت فقبل ذلك، وسبب تسميته سفينة لها قصة يحكيها فيقول: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، قال: فكان كلما أعيا رجل ألقى علي ثيابه ترسًا، أو سيفًا، حتى حملت من ذلك شيئًا كثيرًا فقال النبي ﷺ: «أنت سفينة»(١).

ومنهم سلمان الفارسي أبو عبد الله مولى الإسلام، أصله من فارس تنقلت به الأحوال إلى أن صار لرجل من يهود المدينة، فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة أسلم سلمان وأمره رسول الله ﷺ، فكاتب سيده اليهودي، وأعانه رسول الله على أداء ما عليه فنسب إليه.

ومنهم شقران الحبشي، كان لعبد الرحمن بن عوف، فوهبه للنبي ﷺ.

ومنهم ضميرة ابن أبي الحميري، أصابه سبي في الجاهلية فاشتراه النبي ﷺ فأعتقه.

ومنهم طعمان، ومنهم عبيد، وفضالة وقفيز، وكيسان، ومدعم، ومنهم نافع، ومنهم نفيع، وواقد، وهرمز أبو كيسان، وهشام، ويسار، يقال إنه الذي قتله العرانيون، ومنهم أبو الحمراء مولى النبي ﷺ وخادمه، ومنهم أبو سلمى داعي النبي ﷺ، وأبو عبيد، وأبو عشيب،

---

(١) أخرجه الحاكم: (٣/ ٦٠٦)، وأحمد (٥/ ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٢)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة: (٢٩٥٩).

وأبو كبشة الأنماري. وأبو مويهبة اشتراه رسول الله ﷺ فأعتقه.(١)

ومن النســـــــاء:

منهن: أمة الله بنت رزينة، وأميمة، وبركة أم أيمن، وأم أسامة بن زيد ابن حارثة، وكانت تحضن النبي ﷺ حتى كبر، فأعتقها ثم زوجها زيد بن حارثة.

ومنهن حليسة مولاة حفصة، ومنهن خولة خادم النبي ﷺ، ورزينة كانت لصفية بنت حيي، وكانت تخدم النبي ﷺ، وريحانة بنت شمعون القرطية. وسانية مولاته ﷺ.

وسديسة الأنصارية مولاة حفصة بنت عمر، وسلامة حاضنة إبراهيم ابن رسول الله ﷺ، وسلمى وهي أم رافع امرأة أبي رافع، وشيرين أخت مارية القبطية.

ومنهن عنقودة أم مليح الحبشية جارية لعائشة ـ رضي الله عنها ـ، وليلى مولاة عائشة.

ومارية القبطية أم إبراهيم، وميمونة بنت سعد، وميمونة بنت أبي عيسبة، وأم ضميرة، وأم عياش، بعثها رسول الله مع البنت تخدمها حين زوجها بعثمان بن عفان رضي الله عنه.

---

(١) انظر البداية والنهاية: (٥/ ٢٥٨-٢٦٨)، وزاد المعاد: (١/ ١١١-١١٣).

وكان عمر بن عبد العزيز -رحمه الله- شديد الاعتناء بموالي رسول الله ﷺ يحب أن يعرفهم، ويحسن إليهم، وقد كتب في أيام خلافته إلى أبي بكر بن حزم عالم أهل المدينة في زمانه: أن يفحص له عن موالي رسول الله ﷺ الرجال، والنساء وخدامه[1]

خدامه ﷺ الذين خدموه من الصحابة من غير مواليه:

منهم: أنس بن مالك الأنصاري خدم رسول الله ﷺ مدة مقامه بالمدينة عشر سنين.

ومنهم الأسلع بن شريك قال: كنت أخدم النبي، وأرحل معه، ومنهم أسماء بن حارثة الأسلمي، وأخوه هند. قال الواقدي: كانا يخدمانه ﷺ لا يبرحان بابه هما، وأنس بن مالك، ومنهم بكير بن الشداخ الليثي، ومنهم بلال بن رباح الحبشي، ومنهم حية وسواء ابنا خالد رضي الله عنهما، وذو مضمر ويقال ذو مخبر، وهو ابن أخي النجاشي ملك الحبشة، بعثه ليخدم رسول الله ﷺ نيابة عنه.

وربيعة بن كعب الأسلمي أبو خراس قال: كنت أبيت مع النبي - صلى لله عليه وسلم - فآتيه بوضوئه، وحاجته.[2]

ومنهم سعد مولى أبي بكر، وعبد الله بن رواحة، وقيس بن سعد بن

(١) البداية والنهاية: (٥/ ٢٦٩/ ٢٧٤).

(٢) أخرجه النسائي: (٢٢١٨)، وابن ماجه: (٣٨٧٩).

عبادة الخزرجي، والمغيرة بن شعبة الثقفي، والمقداد بن الأسود الكندي، وعقبة بن عامر الجهني، ومهاجر مولى أم سلمة، وأبو السمح قال: كنت أخدم النبي ﷺ[1].

ومنهم أفضل الصحابة على الإطلاق أبو بكر الصديق تولى خدمته بنفسه في سفره للهجرة لاسيما في الغار، وبعد خروجهم منه حتى وصلوا إلى المدينة[2].

وبعد أن عرفت أخي الكريم من خدمه ﷺ وكان من مواليه لا بد أن تعرف كيف كان يتعامل النبي ﷺ مع هذا الصنف من الناس، وتخبر أخلاقه ﷺ معهم، ومن ذلك.

١- عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ إذا صلى الغداة، جاء خدم المدينة بآنيتهم فيها الماء، فما يؤتى بإناء إلا غمس يده فيه، فربما جاؤوه في الغداة الباردة، فيغمس يده فيها»[3].

وفي هذا بيان قرب النبي ﷺ من الناس، وتبركهم به كما بوب على ذلك الإمام النووي -رحمه الله- في صحيح مسلم.

وفيه صبره على المشقة لمصلحة المسلمين، وإجابته من سأله حاجة،

---

(١) أخرجه أبو داود: (٣٧٦)، والنسائي: (٣٠٤)، وابن ماجه: (٥٢٦).

(٢) البداية والنهاية: (٥/ ٢٧٤/ ٢٨٠).

(٣) أخرجه مسلم: (٢٣٢٤).

أو تبريكًا بمس يده، وإدخالها في الماء كما ذكروا وكل هذا من مظاهر التواضع التي عليها النبي ﷺ.

٢- عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يجلس على الأرض، ويأكل على الأرض، ويعقل الشاة، ويجيب دعوة المملوك(١).

ذكر لنا هذا الحديث عددًا من مظاهر تواضعه ﷺ ومنها إجابته دعوة المملوك، وعدم تكبره عنها، أو ترفعه عن قبولها.

٣- عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ «خرج يومًا غاضبًا، فتلقاه ذراري الأنصار، وخدمهم».

قال: ما هم بوجوه الأنصار يومئذ فقال: «والذي نفسي بيده إني لأحبكم» مرتين أو ثلاثًا.(٢)

وإعلامه ﷺ خدم الأنصار، وذراريهم بحبه لهم من شمائله المباركة، وسيرته المتواضعة.

٤- عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: بينما أقود برسول الله ﷺ في نقب من تلك النقاب، إذا قال لي: «يا عقبة ألا تركب؟» قال: فأشفقت أن تكون معصية، قال: فنزل رسول الله وركبت هنيهة، ثم ركب ثم قال: «يا عقبة ألا أعلمك سورتين من خير سورتين قرأ بهما الناس؟»، قلت:

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير: (١٢/ ٦٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع:(٤٩١٥).

(٢) تقدم تخريجه.

بلى يا رسول الله، فأقرأني: «قل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس» ثم أقيمت الصلاة، فتقدم رسول الله ﷺ فقرأ بهما، ثم مر بي فقال: «اقرأ بهما كلما نمت، وكلما قمت»[1].

تقدم ذكر عقبة بن عامر فيمن خدم النبي ﷺ وتأمل هنا كيف كانت معاملته الزاكية، وتواضعه الجم ﷺ، حيث عرض عليه أن يركب ونزل رسول الله ﷺ يمشي.

وفيه حرصه ﷺ على تبليغ أهل العلم، ومكافأته من يسدي إليه بأن أهداه هذه الفائدة العظيمة.

٥- عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «خدمت النبي ﷺ عشر سنين، فما قال لي: أف، ولا لم صنعت، ولا ألا صنعت»[2].

وفي رواية: «قدم رسول الله ﷺ المدينة ليس له خادم، فأخذ أبو طلحة بيدي، فانطلق بي إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إن أنسًا غلام كيس فيخدمك، قال: فخدمته في السفر، والحضر ما قال لي لشيء صنعته: لم صنعت، هكذا؟، ولا شيء لم أصنعه: لِمَ لَمْ تصنع هذا هكذا؟»[3].

---

(١) أخرجه أبو داود: (١٤٦٢)، والنسائي:(٥٤٣٧/ ٥٤٣٨)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب: (١٤٨٦).

(٢) أخرجه البخاري: (٣٨, ٦٠)، ومسلم: (٢٣٠٩).

(٣) أخرجه البخاري:(٢٧٦٨)، ومسلم: (٢٣٠٩).

من الأخلاق الكريمة، والشمائل المستقيمة ترك العتب على ما فات ولذلك قال يوسف -عليه الصلاة والسلام- لإخوته: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف:٩٢].

وكان من أخلاقه ﷺ عدم التثريب، أو العتاب على ما مضى.

قال الحافظ ابن حجر(١): «ويستفاد من هذا ترك العتاب على ما فات، لأن هناك مندوحة عنه باستئناف الأمر به إذا احتيج إليه، وفائدة تنزيه اللسان عن الزجر، والذم واستئلاف خاطر الخادم بترك معاتبته، وكل ذلك في الأمور التي تتعلق بحظ الإنسان، وأما الأمور اللازمة شرعًا، فلا يتسامح فيها لأنه من باب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر».

وقال الإمام النووي -رحمه الله تعالى-(٢): «وفي هذا الحديث بيان كمال خلقه ﷺ وحسن عشرته، وحلمه، وصفحه» (ا.هـ).

٦- عن ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه قال: كنت أبيت مع رسول الله ﷺ فآتيه بوضوئه وحاجته، فقال لي: «سل»، فقلت: أسألك مرافقتك في الجنة. قال: «أو غير ذلك»، قلت: هو ذاك، قال: «فأعني على نفسك بكثرة السجود»(٣).

---

(١) فتح الباري: (٣/ ٤٦٠).

(٢) شرح مسلم: (١٥/ ٥٨).

(٣) أخرجه مسلم: (٤٨٩).

إن رد الجميل، والمكافأة لأهل الإحسان والخدمة كان منهجًا يسير عليه رسول الله ﷺ، وهذا من سجاياه، وكرمه وعرفانه الجميل لأهله، مما يدل على سمو النفس، وتواضع القلب.

ومن ذلك أيضًا:

٧- عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ في بيت ميمونة، فوضعت له وضوءًا من الليل، قال: فقالت ميمونة: يا رسول الله وضع لك هذا عبد الله بن عباس فقال: «اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل»[1].

٨- عن أبي هريرة رضي الله عنه أن امرأة سوداء كانت تقم المسجد، ففقدها رسول الله ﷺ، فسأل عنها، فقالوا: ماتت. قال: «أفلا كنتم آذنتموني؟!».

قال: فكأنهم صغروا أمرها، فقال: دلوني على قبرها، فدلوه فصلى عليها ثم قال: «إن هذه القبور مملوءة ظلمة على أهلها وإن الله -عز وجل- ينورها لهم بصلاتي عليهم»[2].

من أخلاق الكبار تفقد الضعفاء والمساكين وأن يسأل رسول الله ﷺ عن أمة سوداء كان عملها أن تقم المسجد وتكنسه لهو من الأخلاق العالية، والمظاهر النبوية الغالية.

---

(١) أخرجه أحمد:(١/ ٣٢٨)، والحاكم:(٣/ ٥٣٤).

(٢) أخرجه البخاري: (٤٥٨)، ومسلم: (٩٥٦).

قال الإمام النووي -رحمه الله- [1]: «وفيه بيان ما كان عليه النبي ﷺ من التواضع، والرفق بأمته، وتفقد أحوالهم، والقيام بحقوقهم، والاهتمام بمصالحهم في آخرتهم، ودنياهم» (ا.هـ).

وقال الحافظ ابن حجر -رحمه الله- [2]: «وفي الحديث فضل تنظيف المسجد، والسؤال عن الخادم، والصديق إذا غاب، وفيه المكافأة بالدعاء...» (ا.هـ).

٩- عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان غلام يهودي يخدم النبي ﷺ فمرض فأتاه النبي ﷺ يعوده، فقعد عند رأسه فقال: «أسلم»، فنظر إلى أبيه وهو عنده، فقال له: «أطع أبا القاسم»، فأسلم فخرج النبي ﷺ وهو يقول: «الحمد لله الذي أنقذه من النار»[3].

إن من صفات الداعية الناجح، الموفق أن يكون متحليًا بالتواضع بعيدًا عن الأنفة والتكبر.

وهذا ما كان عليه النبي ﷺ فجره تواضعه الجم إلى زيارة اليهودي الذي كان يخدمه في مرضه، وعرض عليه الإسلام لينقذه الله به من النار.

---

(١) شرح مسلم: (٧/ ٤٠).

(٢) فتح الباري: (٢٥٥٣).

(٣) أخرجه البخاري: (١٣٥٦).

وفعلًا كان له ما أراد ﷺ، فأسلم اليهودي، وخرج النبي من عنده فرحًا مسرورًا، تتحمل أساريره مبتهجة نفسه لإسلام كافر، ودخوله في الملة الحنيفية.

قال ابن حجر -رحمه الله- [1]: «وفي الحديث جواز استخدام المشرك، وعيادته إذا مرض، وفيه حسن العهد...» (ا.هـ).

---

(١) فتح الباري (٣/ ٢٢١)

الأعمدة الشامخة للكتاب

١- أخلاق النبي ﷺ وقبسات من سيرته آداب الزفاف في السنة المطهرة محمد ناصر الدين الألباني دار التيسير - صنعاء.

٢- أصحاب الرسول ﷺ محمود المصري دار التقوى للنشر - مصر.

٣- أصل صفة صلاة النبي ﷺ محمد ناصر الدين الألباني مكتبة المعارف - الرياض.

٤- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن محمد الأمين الشنقيطي دار إحياء التراث العربي.

٥- الأخلاق بين الطبع والتطبع فيصل الحاشدي دار الإيمان - الإسكندرية.

٦- الأنوار في شمائل النبي المختار الحسين البغوي مكتبة أولاد الشيخ - مصر.

٧- بغية الرائد فيما في حديث أم زرع من الفوائد للقاضي عياض المالكي دار أضواء السلف المصرية.

٨- البداية والنهاية أبو الفداء ابن كثير مكتبة الصفا - مصر.

٩- تأويل مختلف الحديث أبو محمد بن قتيبة دار ابن القيم - دار ابن عفان.

١٠- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي محمد المباركفوري دار الكتب العلمية - بيروت.

١١- ترطيب الأفواه بذكر من يظلهم الله سيد عفاني مكتبة معاذ - دار العفاني .

١٢- تفسير القرآن العظيم أبو الفداء ابن كثير دار المعرفة - لبنان.

تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان عبد الرحمن السعدي مكتبة الرشد - الرياض.

١٣- تيسر الوصول إلى مايحبه الرسول ﷺ عدنان المقطري دار الضياء - مصر.

١٤- الجامع لأحكام القرآن الكريم محمد القرطبي مكتبة الإيمان - مصر.

١٥- زاد المعاد في هدي خير العباد شمس الدين ابن القيم الجوزية مؤسسة الرسالة - بيروت.

١٦- سبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام ابن الأمير الصنعاني دار البصيرة - الإسكندرية.

١٧- سير أعلام النبلاء شمس الدين الذهبي مؤسسة الرسالة.

١٨- سنن الترمذي أبو عيسى الترمذي بيت الأفكار الدولية.

١٩- سنن أبي داود سليمان السجستاني مكتبة المعارف - الرياض.

٢٠- سنن النسائي أحمد بن شعيب النسائي مكتبة المعارف - الرياض.
٢١- سنن ابن ماجه محمد بن يزيد القزويني مكتبة المعارف - الرياض.
٢٢- سلسلة الأحاديث الصحيحة محمد ناصر الدين الألباني مكتبة المعارف - الرياض.
٢٣- سلسلة الأحاديث الضعيفة محمد ناصر الدين الألباني مكتبة المعارف - الرياض.
٢٤- شرح سنن أبي داود بد الدين العيني مكتبة الرشد - الرياض.
٢٥- شرح صحيح مسلم أبو زكريا النووي مكتبة الصفاء - مصر.
٢٦- شرح رياض الصالحين محمد العثيمين دار السلام - القاهرة.
٢٧- شرح السنة الحسين البغوي دار الكتب العلمية - بيروت.
٢٨- صحيح البخاري محمد بن إسماعيل البخاري دار السلام - الرياض.
٢٩- صحيح مسلم مسلم بن الحجاج النيسابوري دار السلام - الرياض.

٣٠- صحيح الجامع الصغير وزيادته محمد ناصر الدين الألباني المكتب الإسلامي - بيروت - دمشق.

٣١- صحيح الترغيب والترهيب محمد ناصر الدين الألباني المكتب الإسلامي - بيروت - دمشق.

٣٢- صحيح الأدب المفرد محمد ناصر الدين الألباني دار الصديق - السعودية.

٣٣- صلاح الأمة في علو الهمة سيد عفاني مؤسسة الرسالة - بيروت.

٣٤- عون المعبود شرح سنن أبي داود أبو الطيب آبادي دار الفكر - لبنان.

٣٥- فتح الباري شرح صحيح البخاري ابن حجر العسقلاني المطبعة السلفية ومكتبتها.

٣٦- القول المفيد على كتاب التوحيد محمد العثيمين دار ابن الجوزي - السعودية.

٣٧- مختار الصحاح محمد الرازي دار الغد الجديد.

٣٨- مدارج السالكين ابن القيم الجوزية مؤسسة المختار - القاهرة.

٣٩- المدخل ابن الحاج المالكي مكتبة التراث - القاهرة.

٤٠- المصباح المنير أحمد الفيومي مؤسسة المختار - القاهرة.

٤١- نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار محمد الشوكاني مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة.

٤٢- النبي محمد ﷺ رحمة الأنام وشفيع دار السلام نعمان الوتر دار الإيمان - الإسكندرية.

فهرس الموضوعات